سورة البقرة

سورة البقرة مدنيّة وآياتها ستّ وثمانون ومائتا آية.

وقد جاء في فضل سورة البقرة بعض الأحاديث، ومن ذلك ما ورد أن البقرة وآل عمران سُمِّيتا بالزهراوين، وأنهما يكونان يوم القيامة غمامتين يظللان فوق رأس من يحفظهما[1].

[١] وردت أقوال كثيرة في الحروف المقطعة في أول السور، وأفضلها قولان:

الأول: أن هذا القرآن كلام الله، وهو مكون من هذه الأحرف العربية.

والثاني: الله أعلم بمراده بها؛ حيث قال هؤلاء: إن لكل كتاب سرًّا وإنها سرُّ القرآن، وقد نسبوا هذا الكلام لأبي بكر الصديق رضي الله عنه. وقد اختار الجمهور ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن كثير والزمخشري القول الأول بأنها ذُكرت لتدل على أن القرآن العظيم نزل باللغة العربية التي تتكون من هذه الأحرف: (أ، ب، ت، ث...إلخ).

والمقصود: أنها أعلام وتحدٍّ لمن عارض، أو كان عنده شك أنه من عند الله بأن يأتي بحديث مثله، وهذا هو الأرجح في هذه المسألة. والحروف المقطعة في أوائل السور يجمعها قول: (كلامه سر حصين قطع).

[٢] يخبر جل وعلا أن هذا الكتاب العظيم وهو القرآن الكريم لا شك فيه ولا ارتياب، وقد أنزله الله هداية للمتقين الذين امتثلوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه. وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾، إشارة لفخامة القرآن وعلو مكانته وأنه عظيم الشأن.

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤).

ومعلوم أن كل الكتب التي تؤلف يعتذر مؤلفوها عن الأخطاء التي فيها، ويطلبوا من القراء العفو والمعذرة عما يبدو فيها من نقص أو تقصير، أما القرآن فلا ريب ولا شك ولا خلل ولا اختلاف فيه، وهذا من إعجاز الله ومن تحديه لمن يعارض من أهل الكفر والضلال من قريش، الذين كانوا يفتخرون ويعتزون بلغتهم، ويتحدُّون أنه لا يستطيع أحد أن يباريهم بها.

[٣] ثم أخبر جل وعلا أن **من صفات هؤلاء المتقين:** أنهم يؤمنون بالغيب، والغيب: هو ما غاب عن الحس والمشاهدة مما ذكر الله عن كيفية ذاته وأمور الآخرة والبرزخ، ومن ذلك أخبار الأمم والأنبياء السابقين والعرش والملائكة والجن، وغير ذلك.

ومن صفاتهم: أنهم يحافظون على أداء الصلوات في أوقاتها المحددة مع جماعة المسلمين إلا أصحاب الأعذار الذين عذرهم الله، ويؤدونها بسكينة ووقار وحضور قلب وخشوع وخضوع، ويكثرون من أدائها لأهميتها وعظيم فضلها.

والصلاة في اللغة: الدعاء، ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب:٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة:١٠٣].

وسُمِّيت الفروض الخمسة صلاة لاشتمالها على الدعاء.

ومن صفاتهم: أنهم ينفقون مما أعطاهم الله من المال، فيخرجون الزكاة الواجبة والصدقات المستحبة قربة لله عز وجل.

[٤] **ثم ذكر سبحانه أن من صفات هؤلاء المتقين:** أنهم يصدقون بما أُنزل عليك يانبي الله وهو القرآن، ويصدقون بكل الكتب السماوية التي أُنزلت على الأنبياء من قبلك، ويؤمنون باليوم الآخر وهو يوم القيامة، ويعلمون علم اليقين أنه حق لا ريب فيه.

واليقين ثلاثة أنواع:

١- يقين خبرٍ، وهو: علمُ اليقين، وهو التصديق التامُّ، ودليله قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر:٥].

٢- يقين مشاهدة ورؤية، وهو: عين اليقين، ودليله قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر:٧].

٣- يقين مباشرة ووقوع وإحساس بالشيء، وهو: حق اليقين، ودليله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾.

وَصِدْقُ اليقين بالآخرة هو الاستعداد لها.

[٥] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المتقين الذين يتصفون بهذه الصفات الحميدة على هدى ونور من ربهم، وأنهم الفائزون بنعيم الله في الآخرة.

والفلاح المذكور في هذه الآية، قيل معناه: الفوز والنجاح بالمطلوب، والنجاة في الآخرة من عذاب الله، وقيل معناه: البقاء السرمدي في النعيم. وهذه الآيات الخمس الأولى جاءت في ذكر صفات المؤمنين المتقين.

[٦-٧] أخبر سبحانه أن الذين كفروا لا يؤمنون، وقطعًا ليس المقصود جميع الكفار، وإنما المقصود وقت نزول هاتين الآيتين صنفان من الكفار: **الصنف الأول**: بعض زعماء قريش كأبي جهل وأبي لهب، وآخرين ممن كرهوا التوحيد والداعين إليه، وعاندوا وعذبوا المسلمين، واضطروهم للهجرة إلىٰ الحبشة، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ:٣١]، أي: بالرسالات التي قبله، وبلغ بهم الكره والحقد أن قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]؛ مع أن الله خلقهم علىٰ الفطرة، وجعلهم مختارين كسائر الناس، لكنهم اختاروا الضلال وأصروا علىٰ الكفر؛ فمهما خوفتهم يانبي الله أم لم تخوفهم فإنهم لن يؤمنوا أبدًا؛ ولهذا ختم الله علىٰ قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وهذا الختم والطبع جاءهم جزاء وليس ابتداءً. **والصنف الثاني**: هم الذين آمنوا ثم ارتدوا ونافقوا، وهؤلاء قال الله عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون:٣].

وأما الكفار الآخرون فهم محل الدعوة.

والدليل علىٰ أن المقصود وقت نزولهما الصنفان السابقان: أن جميع الكفار في مكة وما حولها أسلموا بعد الفتح وحاربوا مع المهاجرين والأنصار لإعلاء كلمة الله؛ بل صار منهم قادة كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

ثم ختم سبحانه الآية مخبرًا أنه أعد لهذين الصنفين عذابًا أليمًا يوم القيامة لا يعلم حجمه إلا الله. ولا شك أن جميع من اتصف بصفات هذين الصنفين فإنهم مثلهم ويشملهم حكمهم.

[٨] ثم أخبر جل وعلا عن صنف من الناس أشد علىٰ الإسلام من الكفار، وهم المنافقون الذين يقولون: إنهم آمنوا بالله ورسوله وباليوم الآخر، فكذبهم الله وأخبر أنهم ليسوا بمؤمنين، وأنهم يضمرون الكفر والعداوة للمسلمين.

[٩] ثم بين سبحانه أن المنافقين يظنون أنهم يخادعون الله والذين آمنوا، وفي الحقيقة أنهم ما يخدعون إلا أنفسهم، ولكنهم لا يَحُسُّون بذلك بسبب جهلهم وغفلتهم وحقدهم علىٰ الدعوة والقائمين بها.

[١٠] ثم أخبر سبحانه أن المنافقين في قلوبهم شك ونفاق؛ كما قال ابن مسعود، فزادهم الله مرضًا، أي: شكًّا. وبين أن هؤلاء المنافقين لهم يوم القيامة عذاب موجع شديد بما كانوا يكذبون. وهذه الآية وصفت جهل المنافقين وضلالهم، ورفضهم اتباع النور الذي جاءت به رسلهم، وبهذا يسقط اعتراض بعضهم: ما دام أن الله ختم علىٰ قلوبهم فمنعهم عن الهدىٰ، فكيف يستحقون العقوبة؟ لأنها أثبتت أن الختم كان بعد ردهم الحق وإصرارهم علىٰ الكفر.

[١١] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المنافقين إذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض بنشر الكفر والمعاصي، ردُّوا: بأنهم يريدون الإصلاح والخير.

[١٢] ولذلك فضحهم الله، وأخبر أنهم هم المفسدون، ولكنهم لا يَحُسُّون أنهم أهل الفساد حقيقة بسبب جهلهم وعنادهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ
أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨)
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَآ إِنَّهُمْ
هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا۟
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (١٤) ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ
فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ
بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ (١٦)

[١٣] وكذلك إذا قيل لهؤلاء المنافقين: آمنوا كما آمن الصحابة رضي الله عنهم بالنبي ﷺ إيمانًا حقيقيًّا؛ جادلوا وقالوا: كيف نفعل مثل فعل هؤلاء الجهلاء ضعاف العقول؟؛ فرد الله عليهم مبينًا أنهم هم الجهلاء والسفهاء، ولكنهم لا يعلمون سوء ما فعلوه وقبيح ما ارتكبوه من العناد والكفر والضلال.

[١٤] ثم أخبر جل وعلا أن المنافقين إذا قابلوا المؤمنين واختلطوا بهم أظهروا لهم الإيمان؛ فإذا رجعوا إلىٰ رؤسائهم في الكفر قالوا: نحن معكم قلبًا وقالبًا، وإنما كنَّا نستخفّ بالمؤمنين ونسخر منهم.

[١٥] ثم بين سبحانه أنه جزاءً لهم علىٰ استهزائهم وسخريتهم بعباد الله المؤمنين فإنه يستهزئ بهم؛ فيمهلهم في الدنيا ليزدادوا ضلالًا إلىٰ ضلالهم، ويتخبطون حيارىٰ لا يدري أحدهم ما يفعل.

والاستهزاء المذكور في هذه الآية، وكذلك المكر في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٠]، وما شابه ذلك؛ هذه أسماء لكل منها وجهين: وجه سَيِّئ وآخر حسن؛ فلا يصح أن تذكر بالنسبة لله إلا مقيدة؛ حتىٰ لا يتطرق إلىٰ الذهن الوجه السيئ؛ فيقال في الاستهزاء: إنه يستهزئ بالمجرمين المستهزئين بالله وآياته ورسوله، ويقال في المكر: أنه يمكر بصدق وخير بالماكرين.

[١٦] ثم بين جل وعلا سبب خسران هؤلاء المنافقين وشقائهم؛ فأخبر أنهم استبدلوا الضلالة بالهدىٰ والكفر بالإيمان؛ فلم يربحوا في تجارتهم، ولم يكونوا من المهتدين، وهذا هو الخسران المبين.

مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ
ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ صُمُّۢ
بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ
ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ
ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ
يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ
قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي
خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ
بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ٢٢ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ
بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن
كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ
ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤

[١٧] شبه جل وعلا حال قوم من المنافقين بحال من كان في ظلمة شديدة، ثم طلب من يوقد له نارًا يستدفئ ويستضيء بها؛ فلما سطعت وأنارت ما حوله واطمأن واستأنس، أطفأ الله عليه هذه النار؛ فبقي في ظلمة لا يرىٰ شيئًا، ولا يهتدي إلىٰ طريق ولا مخرج؛ فكذلك هؤلاء المنافقون الذين آمنوا ظاهرًا فَحُقِنَتْ دماؤهم وحفظت أموالهم، ولكنهم كفروا باطنًا فصاروا يتخبطون في ظلمة الكفر والضلال والنفاق والمعاصي؛ فلما فاجأهم الموت جاءتهم ظلمة القبر، وبعدها ظلمة النار.

[١٨] ثم بين سبحانه أن حال هؤلاء المنافقين كحال الصم الذين لا يسمعون الحق، وكالخُرس الذين لا ينطقون بالحق، وكالعمي الذين لا يبصرون الهدىٰ والنور؛ ولهذا السبب فإنهم لا يرجعون عن غيهم وضلالهم. قال عبدالله بن مسعود وبعض أصحابه رضي الله عنهم: (إن أناسًا دخلوا في الإسلام؛ فعلموا الحلال والحرام، وعاشوا في نور الإسلام، ثم نافقوا؛ فنزلت هذه الآية). وهي تنطبق علىٰ كل من شاكلهم.

[١٩] ثم شبه جل وعلا حال قوم آخرين من المنافقين بحال جماعة يمشون في صحراء؛ فأصابهم مطر شديد مصحوب بظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، مع رعد مخيف، وبرق يَخْطَفُ الأبصار، وصواعق محرقة، ومن شدة الرعب والخوف وضعوا أصابعهم في آذانهم خوفًا من الهلاك. وهكذا المنافقون فإن في قلوبهم ظلمات، ظلمة الكفر وظلمة الشك وظلمة النفاق؛ فلما سمعوا القرآن نفروا من تعاليمه، وسدُّوا آذانهم عن سماعه كفرًا وحقدًا، ونسوا أن الله محيط بهم وقادر عليهم، وأنه لا مهرب لهم منه.

[٢٠] ثم بين جل وعلا أن هذا البرق كاد من شدة لمَعَانه أن يذهب بأبصارهم؛ فكلما أضاء لهم الطريق لحظةً من الزمن مشوا في ضوئه، وإذا ذهب أظلم عليهم فيقفون في أماكنهم، ولو شاء سبحانه لسلب سمعَهم بقصف الرعد، وسلب أبصارهم بوميض البرق؛ فإنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. وهكذا المنافقون ينتفعون بالإسلام ظاهرًا في الحياة الدنيا، ثم لهم العذاب الأليم الدائم في نار جهنم.

وهذه الآيات من الآية الثامنة إلىٰ الآية العشرين كلُّها جاءت في وصف المنافقين؛ لأنهم أسوأ من الكفار، فهم أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر؛ لذا كانوا أشد عقوبة من الكفار الأصليين.

[٢١] هذا أول نداء من الله للخلق جميعًا؛ حيث أمرهم سبحانه أن يعبدوه وحده لا شريك له؛ فهو وحده المستحق للعبادة، وهذه العبادة هي المقصود الأعظم من الخلق، وأمرهم سبحانه بالعبادة؛ لأنه ربهم الذي أوجدهم وأوجد الذين من قبلهم من العدم، وأمرهم سبحانه بالعبادة؛ ليكونوا من المتقين، الذين يتقون سخط الله وعذابه، بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

[٢٢] وكذلك أمر جل وعلا الناس بعبادته لأنه هو الذي مهد لهم الأرض ليستقروا عليها، وجعل لهم السماء محكمة البناء، وأنزل المطر من السحاب فأخرج لهم به من ألوان الثمرات وأنواع النباتات رزقًا لهم، ولهذا يجب عليهم أن لا يُشركوا مع الله أحدًا غيره، وهم يعلمون أن الله ليس له شريك ولا نظير لا في الخلق ولا في الرزق ولا في الألوهية والكمال.

[٢٣] ثم وجه سبحانه الخطاب لهؤلاء الكفار المعاندين الذين أشركوا معه غيره، فقال لهم: فإذا كنتم في شك من القرآن الذي أنزلناه علىٰ نبينا محمد ﷺ فأتوا بسورة تماثل سورة من سوره في البيان والبلاغة، واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وفُصحائكم؛ إن كنتم صادقين أنكم تستطيعون التحدي.

[٢٤] ثم قال لهم سبحانه: فإذا عجزتم أيها الكفار عن هذا التحدي؛ ولا محالة أنكم ستعجزون؛ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة؛ وذلك بالإيمان بالله وتصديق نبيه ﷺ، واعلموا أن هذه النار أعدها الله للكافرين به وبرسوله ﷺ.

وقوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾: يستدل بها أهل السنة والجماعة علىٰ أن الكفار ومن علىٰ شاكلتهم كالملاحدة والدهريين وغيرهم؛ مخلدون في النار؛ أما العصاة من المؤمنين فيخرجون منها بعد أن يأخذوا جزاءَهم ويُطَهَّروا. ويستدلون بها أيضًا علىٰ أن الجنة والنار مخلوقتان، وأنهما باقيتان أبدًا بإبقاء الله لهما.

ويقال: إن هذه الآية من آيات الإعجاز؛ حيث أن الذين نزلت عليهم لم يجرؤ أحد منهم علىٰ محاولة الإتيان بمثله.

الجُزْءُ الأَوَّلُ — سُورَةُ البَقَرَةِ

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ
رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ
وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥ ۞إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ
يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ
إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ
مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ
فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧ كَيۡفَ
تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ
ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ
لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ
فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩

٥

[٢٥] يأمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يبشر أهل الإيمان والعمل الصالح، أن الله أعد لهم جنات فيها حدائق وبساتين ذات أشجار وثمار جميلة؛ تجري الأنهار من تحت أشجارها ومساكنها، وكلما رزقهم الله نوعًا من أنواع الثمرات، ظنوا –قبل أن يذوقوه– أنه نفس النوع الذي أكلوه من قبل؛ لأنه يشبهه في المنظر، فهي ثمار متشابهة في الألوان مختلفة في الطعم.

ثم أخبر سبحانه أنه أعد لأهل الإيمان أيضًا زوجات جميلات مطهرات من كل دنس وعيب حسي: كالبول والعادة الشهرية، ومعنوي: كسوء الخلق والكذب وغيره، ومع هذا النعيم فهم دائمون لا يموتون ولا ينقطع عنهم نعيمهم.

[٢٦] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أنه لا يستحيي من الحق؛ فيضرب الأمثال بما شاء من خلقه، صغيرًا كان أو كبيرًا؛ كالبعوضة والذباب والنملة وغيرها، فالمؤمنون يعلمون حكمة الله في هذه الأمثال، وأنها صدق لا مِرْيَةَ فيها؛ فيزدادوا إيمانًا علىٰ إيمانهم.

وأما الكفار فَيَسْخَرُونَ ويعترضون ويتحيرون، ويقولون: ماذا يريد الله بهذا المثل؟، ويزدادوا كفرًا إلىٰ كفرهم، ولذلك يُضل الله بهذه الآيات أقوامًا فينكرونها ويَسْخَرُونَ منها؛ فيُطبع علىٰ قلوبهم، ويهدي بها آخرين فيؤمنون بها ويعملونَ بمقتضاها؛ ثم بين سبحانه أنه ما يضل بهذه الآيات إلا الفاسقين الخارجين عن طاعة الله، المعادين لله وَلِمَا جاءت به رسل الله.

[٢٧] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الفاسقين الخارجين عن طاعة الله هم الذين ينكُثون العهود والمواثيق التي بينهم وبين الله، وكذلك ينكثون العهود والمواثيق التي بينهم وبين الخلق، وذلك من بعد توكيدها علىٰ أنفسهم، وأيضًا يخالفون أمر الله بوصل الأرحام؛ فيقطعون الأرحام وينشرون الفساد والضلال في الأرض؛ ولذلك فإنهم خاسرون في الدنيا والآخرة.

[٢٨] ثم سأل سبحانه علىٰ سبيل الإنكار والاستغراب، فقال: كيف تجحدون أيها الكفار المشركون وحدانية الله الذي خلقكم من العدم، ووهبكم كل هذه النعم، ثم بعد ذلك يميتكم فتُقْبَرُوا، ثم يخرجكم من قبوركم للحساب؛ ثم إليه ترجعون؛ فيجازيكم علىٰ أعمالكم؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

[٢٩] ثم أخبر جل وعلا أنه خلق لأجلكم جميع ما على الأرض من النعم للانتفاع والاستمتاع والاعتبار بها، كرامة ونعمة منه سبحانه للناس أجمعين، ثم قصد سبحانه إلى خلق السماوات فأبدعهن وجعلهن سبع سماوات، ثم بين أنه بكل شيء عليم؛ وأن علمه محيط شامل جميعَ خلقه سبحانه جل شأنه.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: هذه الآية تدل على أن جميع ما على الأرض مباح للإنسان، ما عدا ما نُصَّ على تحريمه.

وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ
أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ
بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠ وَعَلَّمَ
ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ
أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ
لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ
أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل
لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ
وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ
فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤ وَقُلۡنَا
يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ
شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥ فَأَزَلَّهُمَا
ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ
لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ
ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧

[٣٠] واذكر يانبي الله يوم أن قال ربك للملائكة أنه سوف يجعل في الأرض خليفة لإعمارها وتنفيذ أحكامه ابتلاءً وتكليفًا لآدم عليه السلام وذريته، وأنه هو وذريته سوف يخلف بعضهم بعضًا في تعميرها، وأن الملائكة سيوكلون بحفظه وكتابة أعماله هو وذريته، وإخبار الله للملائكة بذلك تعظيمًا وإظهارًا لفضل آدم عليه السلام، ثم سأل الملائكة ربهم عز وجل قائلين: أتجعل ياربنا في الأرض من يفسد فيها بإراقة الدماء وفعل المعاصي والفجور، ونحن ننزهك عما لا يليق بجلالك، ونعظمك، ولا نعصيك أبدًا؟، وسؤالهم هذا يدل علىٰ أنهم رأوا خلقًا قبل آدم يسفكون الدماء، أو أن الله أخبرهم بذلك؛ كما ذكر ذلك بعض المفسرين. فرد سبحانه عليهم مبينًا لهم أنه يعلم ما لا يعلمون من سر الخلق وعواقب الأمور.

[٣١] ثم أخبر جل وعلا أنه علَّم آدم الأسماء كلها، أي: أقدر آدم علىٰ تسمية كل شيء باسمه المناسب، وجعل عِلْمَ الأسماء ضمن خِلْقته، بأن خلقه عارفًا عالمًا بذلك، وأعطاه مفاتيح العلوم واللغات والأسماء، ثم إنه سبحانه عرض المسمَّيات علىٰ الملائكة لاختبارهم إن كانوا صادقين في ظنهم أنهم أفضل من آدم وذريته.

[٣٢] فلما تبين للملائكة فضل آدم عليهم قالت: ياربنا إننا نقدسك وننزهك من الاعتراض عليك ومخالفة أمرك، وليس لنا علم إلا ما علمتنا؛ فإنك أنت وحدك العليم الذي أحاط علمك بكل شيء، وأنت الحكيم في تدبير الأمور.

[٣٣] ثم أمر جلّ وعلا آدم أن يذكر للملائكة أسماء المسمَّيات لما عجزوا عن معرفتها ليُظهرَ فضلَه وشرفه، فلما أنبأ آدم عليه السلام الملائكة بالأسماء، حينها قال سبحانه للملائكة: ألم أخبركم أيها الملائكة أني أعلم ما خفي عنكم في السماوات والأرض، وأعلم كل ما تظهرونه وما تخفونه؟.

[٣٤] ثم أمر جلَّ وعلا الملائكة أن يسجدوا لآدم سجود تحية واحترام، إكرامًا وتعظيمًا له، فامتثل الملائكة أمر الله وسجدوا له، إلا إبليس فلم يسجد تكبرًا وعنادًا، ولذلك صار من الجاحدين العاصين لأمر الله.

وقد أخبر سبحانه أن إبليس من الجن وليس من الملائكة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف:٥٠]، وأَمَرَ جل وعلا إبليس بالسجود لآدم عليه السلام بأمر خاص به؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ ﴾ [الأعراف:١٢]، وَذُكِرَ معهم لأنه أُمِرَ في نفس الوقت الذي أُمِرت فيه الملائكة بالسجود.

[٣٥] ثم أمر جلّ وعلا آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجه حواء في الجنة، ويتمتعا من ثمارها في أمن وأمان، ونهاهم عن أكل ثمرة شجرة عينها لهما ابتلاء وامتحانًا؛ حتىٰ لا يقعا في المعصية فيكونا من الظالمين بسبب عصيان الله سبحانه وتعالىٰ.

[٣٦] ثم بين سبحانه أن الشيطان زين لآدم وزوجه الأكل من الشجرة، وأخبرهما أن الأكل منها يكسبهما الخلود في الجنة، وأقسم أنه ناصح ومخلص لهما، فلم يزل الشيطان يوسوس لهما حتىٰ حملهما علىٰ الخطيئة التي أزالتهما وأخرجتهما من الجنة ونعيمها، ولهذا أمر سبحانه آدم وحواء وإبليس بالنزول إلىٰ الأرض، وجعل بعضهم يعادي بعضًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[فاطر:٦]، ثم أخبرهما سبحانه وتعالىٰ أنه جعل الأرض سكنًا ومعاشًا لآدم وذريته حتىٰ يأذن الله بقيام الساعة وانتهاء الآجال، قال تعالىٰ: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾[طه:٥٥].

[٣٧] ثم أخبر جل وعلا أن آدم تلقىٰ كلمات التوبة والاستغفار التي ألهمه الله إياها، فتاب الله عليه وغفر له، إنه سبحانه كثير القبول لتوبة من تاب وأناب من عبادة، وواسع الرحمة بهم.

قال أكثر المفسرين: الكلمات التي ألهمها الله لآدم المذكورة في هذه الآية هي في قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣].

قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ
هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾
يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ
أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا
لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى
ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟
ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ
وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾
وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ
﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾
يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ
عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا
وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

٧

[٣٨] كرر جل وعلا أمره لآدم وحواء بالنزول إلىٰ الأرض، وبين لهما أنه سيأتيهما وذريتهما ما فيه هدايتهم إلىٰ الحق، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ فمن آمن واتبع هدىٰ الله فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

[٣٩] ثم بين سبحانه أن الذين جحدوا وكذبوا بالحق فأولئك جزاؤهم نار جهنم خالدين فيها لا يخرجون منها أبدًا.

[٤٠] ثم نادي سبحانه وتعالىٰ بني إسرائيل وهم ذرية يعقوب عليه السلام وأمرهم أن يتذكروا نعم الله الكثيرة عليهم، وذلك بالشكر والطاعة، كما أمرهم سبحانه أن يتموا وصية الله لهم، وهي: الإيمان بالله وبكتبه ورسله والعمل بشرائعه؛ فإن فعلوا ذلك نصرهم وأعزهم في الدنيا، وأكرمهم في الآخرة؛ ثم أمرهم عز وجل أن لا يخافوا أحدًا سواه.

وإسرائيل هو: يعقوب حفيد أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وهو أبو الأسباط يوسف وإخوانه عليهم السلام أجمعين.

[٤١] ثم أمر المولىٰ عز وجل بني إسرائيل أن يؤمنوا بالقرآن الذي أُنزل علىٰ محمد ﷺ الموافق لصحيح التوراة، وحذرهم أن يكونوا أول من يكفر بالرسول ﷺ والقرآن، وحذرهم أيضًا من أن يستبدلوا بآيات الله ثمنًا قليلًا من حطام الدنيا الزائل، ثم أمرهم أن يكونوا من المتقين وذلك بطاعة الله وترك معصيته.

[٤٢] ثم حذَّر سبحانه بني إسرائيل أن يخلطوا الحق بالباطل، وحذَّرهم أيضًا أن يكتموا الحق الذي ظهر وبانت أدلته عندهم، وهو الإيمان بنبوة محمد ﷺ وصدق رسالته، وهم يعلمون من الكتب التي بين أيديهم أنه رسول من عند الله.

[٤٣] ثم أمر جل وعلا بني إسرائيل أن يقيموا الصلاة كما جاء بها النبي ﷺ، وأن يؤتوا الزكاة المفروضة علىٰ الوجه المشروع، وأن يشهدوا الصلاة جماعة مع المسلمين.

[٤٤] ثم خاطب عز وجل بني إسرائيل علىٰ سبيل التوبيخ؛ فقال لهم: أتأمرون الناس بالإيمان بالله ورسله وإقام الصلاة وغيرها من أعمال الخير، وتتركون أنفسكم فلا تأمرونها بذلك؛ في حين أنكم تقرؤون التوراة التي فيها الحجج والبراهين الواضحة البينة، أفلا تستعملون عقولكم استعمالًا صحيحًا يدعوكم إلىٰ الفضائل ويزجركم عن الرذائل.

[٤٥] ثم أمر جل وعلا بني إسرائيل بالاستعانة بالصبر بجميع أنواعه في أمورهم كلها، وكذلك المداومة علىٰ الصلاة التي تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، وبين سبحانه أن الصلاة من الأعمال الشاقة إلا علىٰ الخاشعين.

[٤٦] ثم بين سبحانه صفة هؤلاء الخاشعين أنهم هم الذين يخشون الله ويرجون ما عنده، ويستيقنون أنهم ملاقو ربهم، وأنهم إليه راجعون يوم القيامة للحساب والجزاء.

[٤٧] ثم كرر جل وعلا النداء لبني إسرائيل وأمرهم أن يتذكروا نعم الله الكثيرة عليهم، وذلك بالشكر والطاعة، ومن النعم أن الله سبحانه فضل آباءهم أتباع موسىٰ عليه السلام علىٰ عالِمِي زَمَانِهِم؛ لأن أتباع كل نبي مفضَّلون علىٰ عالِمِي زمانهم.

ولا شك أن تفضيل الآباء شرف للأبناء، وتفضيل الله لهم كان بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأنه جعل منهم سادة وملوكًا.

وقوله سبحانه هذا لبني إسرائيل جاء بعد اتخاذهم العجل وعبادته تبكيتًا ولومًا.

[٤٨] ثم أمر جل وعلا بني إسرائيل أن يخافوا يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا يُغني فيه أحد عن أحد شيئًا، ولا يقبل الله في ذلك اليوم أن يشفع أحد في الكافرين، ولا يقبل سبحانه من كافر فدية، ولا يملك أحد في هذا اليوم أن يُعِينَ كافرًا، أو ينصره، أو ينجيه، من عذاب الله الشديد.

وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ
يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ
مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ
وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ
أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ
﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾
وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ
ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ
خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ
جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم
مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ
ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ
مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾

[٤٩] يذكِّر جل وعلا بني إسرائيل بنعمته عليهم يوم أن أنقذهم من بطش فرعون وأتباعه، الذين أذاقوهم كل ألوان العذاب، ومن ذلك ذبح كل مولود ذكر، وترك كل مولود أنثىٰ لاستخدامها للخدمة في بيوت آل فرعون، واعلموا أن فيما حل بآبائكم من العذاب هو اختبار وامتحان عظيم لكم من الله، لتمييز المؤمن من الكافر، والبر من الفاجر.

[٥٠] ثم ذكَّرهم سبحانه بنعمته عليهم يوم أن أنقذهم من فرعون وجنوده بتجميد البحر حتىٰ صار طُرُقًا يابسة؛ فأنجاهم وأغرق فرعون وجنوده أمام أعينهم.

[٥١] ثم ذكَّرهم سبحانه بنعمته عليهم يوم أن ذهب موسىٰ للموعد الذي حدده الله والذي كان بعد إغراق فرعون وجنوده بأربعين ليلة لكي يُنزِّل عليه التوراة التي فيها الهدىٰ والنور لكم، ولكنكم كفرتم باتخاذكم العجل معبودًا من دون الله بعد ذهاب موسىٰ، وقد ظلمتم أنفسكم بهذه الجريمة الشنيعة. [٥٢] ثم بين سبحانه أنه مع كل هذه الجرائم التي وقعوا فيها فإن الله عفا عنهم وقبل توبتهم؛ لعلهم يشكرونه علىٰ هذه النعمة. [٥٣] ثم ذكَّرهم سبحانه بنعمته عليهم يوم أن أكرم موسىٰ بالتوراة الفارقة بين الحق والباطل؛ ليهتدوا ويسترشدوا بها من الضلال.

[٥٤] ثم ذكَّرهم سبحانه بنعمته عليهم يوم أن قال موسىٰ لهم: لقد ظلمتم أنفسكم بعبادة العجل، ولذا يجب عليكم أن تتوبوا إلىٰ ربكم، وذلك بأن يقتل بعضكم بعضًا تطهيرًا لكم من هذا الذنب؛ حيث كان تكفير الذنب في بني إسرائيل أن يقتل البريءُ منهم المذنبَ، وهذا من الآصار التي رفعت عن أمة محمد ﷺ؛ حيث جعل الله لهذه الأمة التوبة كفارةً للذنب مهما كبر، مع القِصاص من المعتدي؛ إلا إذا عفىٰ المعتدىٰ عليه، واعلموا أن طاعتكم وامتثالكم لأمر الله خير لكم؛ لأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، ولذلك تاب الله عليكم ورحمكم لمَّا امتثلتم أوامر الله، واعلموا أن الله هو التواب الذي يقبل توبة من تاب من عباده، الرحيم بهم. [٥٥] ثم ذكَّرهم سبحانه بنعمته عليهم يوم أن قال أولئك السبعين الذين اختارهم موسىٰ: لن نصدق برسالتك ياموسىٰ حتىٰ نرىٰ الله عيانًا، وقد قالوا ذلك تعجيزًا وليس شوقًا لرؤية الله، ولشناعة هذا المطلب أنزل الله عليهم نارًا من السماء رأوها بأعينهم؛ فأهلكتهم جميعًا.

[٥٦] ثم أخبر سبحانه أنه أحياهم بعد ذلك تحقيقًا لرغبة موسىٰ وشفاعته؛ ليعلموا عظيم نعمة الله عليهم فيشكروه.

في الآية السابقة سأل بنو إسرائيل موسىٰ رؤية الله فأنزل الله عليهم صاعقة من السماء قتلتهم وأحرقتهم.

وفي آية أخرىٰ سأل موسىٰ رؤية ربه ولم ينزل عليه شيئًا؛ بل وضَّح الله له أن رؤيته في الدنيا لا يطيقها البشر، قال تعالىٰ: ﴿**وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ**﴾ [الأعراف:١٤٣]؛ فموسىٰ لما رأىٰ انهيار الجبل صعق، ولكن صعقته كانت غيبوبة، ولم يمت بدليل قوله: ﴿**فَلَمَّآ أَفَاقَ**﴾. **والفرق بين السؤالين**: أن سؤال موسىٰ هو سؤال حب واشتياق، أما سؤالهم فهو سؤال تعنت وتعجيز.

وفي هذه السورة – أي: سورة البقرة – أرىٰ الله عباده قدرته علىٰ إحياء الموتىٰ في أربعة مواضع، هذه **إحداها**. **والموضع الثاني**: القتيل الذي تَمَارَوْا في قتله؛ فأمر الله موسىٰ بأخذ عضو من بقرة مذبوحة فيُضرب به الميت، فلما ضربه انتصب قائمًا، وأخبرهم بالذي قتله، وذلك في الآيتين (٧٢ – ٧٣). **والموضع الثالث**: قصة إبراهيم مع الطير التي مزقها إربًا، ثم وزعها علىٰ الجبال، ثم أمر الله نبيه إبراهيم بدعوتهن فأتته تسعىٰ، وذلك في الآية (٢٦٠). **والموضع الرابع**: الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت؛ فأماتهم الله ثم أحياهم، وذلك في الآية (٢٤٣).

[٥٧] ثم ذكر جل وعلا نعمته علىٰ بني إسرائيل حين تاهوا في الأرض؛ حيث جعل السحاب عليهم كالمظلة تقيهم حرَّ الشمس، وأنزل عليهم المنَّ الذي يشبه العسل، والسلوىٰ وهو طير لذيذ اللحم يشبه السُّماني؛ وقال الله لهم: كلوا مما رزقناكم من هذه الطيبات، ولكنهم لم يشكروا نعم الله، ولم يمتثلوا أوامره؛ بل استمروا علىٰ كفرهم ومعاصيهم، فبين الله بأنهم لم يضروه بكفرهم ومعاصيهم التي ارتكبوها، ولكنهم أضروا أنفسهم؛ لأنهم عرَّضوها لغضب الله وعذابه.

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ
رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ
خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ
مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟
وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا
وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ
أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ
ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

[٥٨] ومن نعم الله عليكم يابني إسرائيل أنه أمركم بدخول مدينة بيت المقدس ليكون لكم وطنًا ومسكنًا، وأمركم أن تأكلوا من خيراتها وثمارها هنيئًا مريئًا، وأمركم حين دخولكم أن تكونوا خاشعين خاضعين شكرًا لله، داعين ربكم أن يَحُطَّ عنكم خطاياكم ويغفر ذنوبكم؛ فإنه جلّ وعلا يغفر لمن تاب وأناب، ويزيد المحسنين فضلًا منه وكرمًا علىٰ إحسانهم.

[٥٩] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء الظالمين السفهاء من بني إسرائيل حرَّفوا كلام الله وغيَّروا وبدَّلوا حسب أهوائهم؛ حيث دخلوا يزحفون علىٰ إساتهم، وقالوا: حبة في شعيرة، مستهزئين بدين الله؛ فعاقب سبحانه هؤلاء الظالمين بأن أنزل عليهم عذابًا من السماء نكَّل بهم جزاءً فعلهم وفسقهم وبغيهم.

[٦٠] وتذكروا يابني إسرائيل نعمة الله عليكم حين كنتم عِطَاشًا في التيه، فطلب موسىٰ من الله أن يسقيكم ماءً لتشربوا منه، فأمره سبحانه أن يضرب الحجر، فانفجر اثني عشر عينًا، لكل سبط منكم عينٌ معلومة يشرب منها، وقال لكم سبحانه: كلوا واشربوا من رزق الله ولا تُخرِّبوا في الأرض بالبغي والإفساد فيها.

وقوله: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾، يعني: خرج الماء منها بكثرة.

وأما قوله: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ [الأعراف:١٦٠]، يعني: خرج الماء منها بقلة.

والمعنىٰ: أن عيون الماء لمَّا كانت قوية عبَّر الله عنها بالانفجار، ثم بعد زمن فَتَرَتْ هذه العيون، وقل ماؤها؛ بسبب كثرة ذنوبهم وعنادهم؛ فعبَّر الله عنها بالانبجاس.

[٦١] ثم ذكَّر جل وعلا بني إسرائيل بنعمته عليهم يوم أن هيأ لهم أحسن الطعام، ولكنهم تضجروا وأصابهم الملل؛ فقالوا: ياموسىٰ لن نصبر علىٰ نوع واحد من الطعام؛ مع أنه كان طعامًا جامعًا لعناصر التغذية، وطلبوا منه أن يدعُوَ الله أن يخرج لهم من الأرض بعض النباتات مثل: الخيار والثوم والعدس والبصل؛ فاستنكر موسىٰ طلبهم، وقال لهم: كيف تستبدلون هذه الأطعمة الرديئة بالأطعمة الجيدة النافعة التي اختارها الله لكم؟!. لذا عليكم أن تنتقلوا من أرضكم هذه إلىٰ أي بلدة أخرىٰ لتجدوا فيها ما تحبون وتشتهون من الأطعمة في الحقول والأسواق.

فلما انتقلوا تبيَّن لهم أنهم قدّموا اختيارهم وشهواتهم علىٰ اختيار الله، لذلك ضُربت عليهم الذلة والمسكنة ولزمتهم، واستحقوا غضب الله عليهم بسبب ارتكابهم الكثير من الجرائم والمعاصي، ومن ذلك: كفرهم بآيات الله وتحريفُها، وقتلهم الأنبياء ظلمًا وعدوانًا؛ وكان هذا العقاب الشديد الذي أصابهم؛ من غضب الله عليهم، ومن الذلة والمسكنة؛ بسبب عصيانهم وتجاوزهم حدود الله.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ
ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا
مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم
بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم
مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ
أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ
﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا
تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ
يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

[٦٢] يخبر جلّ وعلا أن الذين آمنوا من هذه الأمة – أمة محمد ﷺ –، والذين آمنوا من الأمم السابقة؛ من اليهود أتباع موسىٰ، ومن النصارىٰ أتباع عيسىٰ، ومن الصابئين الذين كانوا علىٰ دين إبراهيم عليه السلام؛ بأنَّ من آمن من هؤلاء بالله وبيوم القيامة وصدَّقوا رسلهم، وعملوا الصالحات؛ فإن لهم الأجر العظيم عند ربهم، ولا خوفٌ عليهم مما ينتظرهم يوم الجزاء والحساب، ولا هم يحزنون علىٰ ما فاتهم من أمور الدنيا.

وهذه الآية في أهل الكتاب والصابئة الذين كانوا قبل بعثة محمد ﷺ، وأما بعد بعثته ﷺ فلا يقبل الله إلا دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْأٓخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

[٦٣] ثم ذكَّر سبحانه وتعالىٰ بني إسرائيل بما أخذه عليهم من العهد والميثاق بالعمل بما شرعه الله لهم في التوراة والإيمان برسله، ثم خوّفهم برفع جبل الطور حتىٰ صار كالمِظَلَّة فوق رؤوسهم، وأمرهم بالجد والاجتهاد في أخذ التوراة وإلا أسقط عليهم الجبل؛ وأمرهم أن يتمسكوا بالتوراة قولًا وعملًا، وأن يحفظوها ويعملوا بما فيها، لعلهم يتقون عذاب الله وسخطه.

[٦٤] ثم بين جل وعلا أن بني إسرائيل نكثوا العهد والميثاق الذي أخذ عليهم، وخالفوا أمر الله وعصَوْه، ولولا فضله سبحانه عليهم ورحمته بأن أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة لصاروا من الخاسرين في الدنيا والآخرة، ونسوا أن الذي خوفهم برفع الجبل فوق رؤوسهم قادر علىٰ أن يعيد ذلك عليهم مرة أخرىٰ.

[٦٥] ثم أخبر جل وعلا عن قصة أهل أَيْلَةَ فقال سبحانه: ولقد عرفتم يامعشر اليهود قصة أهل أَيْلَةَ الذين عصوا أمر الله واحتالوا لاصطياد السمك يوم السبت الذي حُرِّم عليهم الصيد فيه؛ حيث احتالوا فوضعوا الشباك وحفروا البرك للسمك قبل يوم السبت، وفي يوم السبت سقط السمك في الشباك فتركوه حتىٰ جاء يوم الأحد فاصطادوه، فعاقبهم الله علىٰ فعلهم بأن مسخهم قردة منبوذين مقبوحين.

[٦٦] ثم أخبر جل وعلا أنه جعل القرية التي حلّت بها هذه العقوبة عِظَةً وعبرةً لمن شاهدها وسمع بها، ولمن يأتي بعدهم ممن أراد أن يفعل مثل هذا الفعل، وهي أيضًا موعظة وتذكرة للصالحين المتقين والبشر أجمعين علىٰ مر العصور والأزمان.

[٦٧] وذكَّر المولىٰ سبحانه وتعالىٰ بني إسرائيل يوم أن قتلوا قتيلًا واختلفوا في قاتله، وكادت أن تقع بينهم فتنة، فاختصموا إلىٰ موسىٰ عليه السلام، فقال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، فكان الواجب عليهم المبادرة بامتثال الأمر وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم ظنوا أنها سخرية منه فقالوا: أتهزأ وتسخر منا ياموسىٰ؟، فردَّ عليهم موسىٰ قائلًا: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين؛ فإن الجاهل هو الذي يستهزئ بالناس ويسخر منهم، أما العقلاء فلا يقع منهم ذلك؛ فكيف يقع من الأنبياء والرسل المعصومين.

[٦٨] فقال بنو إسرائيل: ياموسىٰ ادع لنا ربك أن يبين لنا أوصاف هذه البقرة، فقال لهم موسىٰ: إنها بقرة ليست كبيرة ولا صغيرة، أي: وسط بين ذلك، فَبَادِرُوا إلىٰ ما أمرتكم به، واتركوا التشدُّد والتعنت في كثرة الأوصاف، ولكنهم شدَّدوا فشدد الله عليهم.

[٦٩] ثم قال بنو إسرائيل: ياموسىٰ ادع لنا ربك أن يبين لنا ما لون هذه البقرة؛ فقال لهم: إن الله يقول: إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة تُبهج وتَسُرَّ من ينظر إليها.

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا
إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ
تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا
الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ
قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ
﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ
آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ
فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا
خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ
عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

١١

[٧٠] ثم قال بنو إسرائيل: ياموسىٰ ادع لنا ربك يوضح لنا شأن هذه البقرة؛ لأن البقر كثير، وقد اشتبه علينا ما تريد، وإنا إن شاء الله لنهتدي إلىٰ ما تريد فنذبحه.

[٧١] فقال لهم موسىٰ عليه السلام: إن الله يقول: إنها بقرة ليست مذللة للعمل في حراثة الأرض للزراعة، وليست معدةً للسَّقي، خالية من العيوب، ولها لون واحد فقط.

وبعد أن سمعوا هذه المواصفات قالوا: الآن جئت بالحق فقد عرفنا هذه البقرة، وهذا يدل علىٰ مدىٰ صلفهم وغطرستهم؛ وإلا فهل أتىٰ عليه السلام بغير الحق قبل ذلك؟! ثم بحثوا عن هذه البقرة بهذه الصفات حتىٰ تحصَّلوا عليها وذبحوها، وكادوا أن لا يجدوا بقرة بهذه الصفات بسبب تشددهم وتعنتهم وعنادهم.

[٧٢] ثم ذكَّر جل وعلا بني إسرائيل يوم أن قتلوا نفسًا معصومة واختلفوا في القاتل، كل يدفع عن نفسه تهمة القتل، ولكن الله سوف يكشف ما كتموا من أمر القاتل.

[٧٣] فقال موسىٰ لبني إسرائيل: خذوا عضوًا من أعضاء هذه البقرة التي ذبحتموها، واضربوا به القتيل؛ فضربوه فأحياه الله وأخبر بمن قتله، ثم أخبر سبحانه أنه كما أحيا هذا الميت أمام أعينكم، فسوف يحيي الموتىٰ يوم القيامة؛ لتروا كمال قدرة الله تعالىٰ لعلكم تراجعون عقولكم، فتمتنعون وتنزجرون عن معاصيه.

[٧٤] وبعد هذه الآيات الباهرة والمعجزات الخارقة التي حدثت معكم يابني إسرائيل، لم تنتفعوا ولم تمتثلوا أوامر الله؛ بل غَلُظَتْ قُلُوبكم واشْتَدَّت بعد كل هذه النعم العظيمة الكثيرة؛ حتىٰ صارت قاسية كالحجارة أو أشد قسوة؛ بل إن من الحجارة ما هو ألين من قلوبكم؛ حيث إن منها ما يتفجر فيصبُّ منها الأنهار، ومنها ما يتشقق فيخرج منه الماء كما هو مشاهد في كثير من البلدان، ومنها ما يسقط من أعالي الجبال خشية ورهبة منه جل وعلا، واعلموا أن الله ليس بغافل عن أفعالكم؛ بل هو عالم بها حافظ لها، وسيجازيكم عنها يوم القيامة يوم الحساب والجزاء.

[٧٥] ثم خاطب جل وعلا المؤمنين فقال لهم: هل تطمعون أيها المؤمنون أن يؤمن اليهود بكتابكم ويتبعوا نبيكم؟! وقد علمتم كيف كان علماؤهم يسمعون كلام الله من التوراة ثم يحرفونه بعد أن عرفوه، وهم يعلمون أنهم يحرفون كلام الله علىٰ غير مراده.

[٧٦] ثم ذكر جل وعلا حال المنافقين من اليهود الذين إذا لقوا المؤمنين قالوا لهم بلسانهم دون أن تؤمن قلوبهم: لقد آمنا بدينكم ورسولكم المبشَّر به في التوراة، فإذا خلا هؤلاء المنافقون من اليهود مع بعضهم البعض قالوا لهم مستنكرين: أتظهرون لهم الإيمان وتخبرونهم بما بيَّن الله لكم في التوراة من أمر محمد فيكون ذلك حجة علينا عند الله يوم القيامة، أليست لكم عقول تبين لكم خطورة ما تفعلون، وما يكون فيه ضرر عليكم، وتمنعكم من أن تحدِّثوا المؤمنين بما يقيم لهم الحجة عليكم يوم القيامة؟.

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ٧٧
وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ
إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ
٧٩ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ
أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ
تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٨٠ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢ وَإِذْ أَخَذْنَا
مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ٨٣

[٧٧] ثم وبخ جلَّ وعلا هؤلاء اليهود علىٰ جهلهم بحقيقة علمه، فقال سبحانه: ألا يعلم هؤلاء اليهود المنافقون من بني إسرائيل أن الله يعلم ما يخفونه من الكفر والحقد علىٰ المؤمنين، وما يظهرونه من الإيمان الكاذب الذي لا حقيقة له؟!

[٧٨] ثم أخبر جل وعلا أن من اليهود جماعة عوامٌ مقلدون، وليسوا من أهل العلم، ولا يعلمون من التوراة إلا التلاوة فقط، ولا يفهمون شيئًا مما يتلونه، وما عندهم إلا ظنون وتقاليد وأكاذيب فاسدة.

[٧٩] ثم توعد جلّ وعلا بالهلاك والعذاب أولئك الذين يكتبون كلامًا من عند أنفسهم ثم يقولون: هذا من عند الله كذبًا وزورًا، وهدفهم من هذا الفعل المشين أن يأخذوا مقابل ذلك شيئًا من عرض الدنيا الفاني، ولا شك أن الأثمان من أولها إلىٰ آخرها مهما كانت كبيرة فهي يسيرة بالنسبة لما عند الله في الآخرة من الثواب والعقاب، ثم عاد سبحانه وتوعدهم بالهلاك والعذاب بسبب ما كتبت أيديهم من الكذب والتزوير، وبسبب ما أكلوا من أموال الناس بالباطل.

[٨٠] ومع كل هذه الأفعال القبيحة فإن اليهود قبحهم الله يزكّون أنفسهم ويقولون: لن تمسنا النار إلا الأيام القليلة التي عبدنا فيها العجل، فأمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء اليهود علىٰ سبيل الإنكار: هل عندكم عهد من الله بهذا؟! فإن كان عندكم عهد بذلك فإن الله لا يخلف العهد، أم أنكم مُتقوّلون علىٰ الله فتكذبون وتفترون عليه؟! وهذا هو الواقع، والحال أنهم كاذبون وآثمون وفي النار خالدون.

[٨١] يخبر جلّ وعلا أن من ارتكب الآثام وأحاطت به حتىٰ أوصلته إلىٰ الشرك، واستولت عليه الذنوب والمعاصي من جميع الجوانب؛ فأولئك هم المشركون والكفار، وهم أصحاب النار الخالدين مخلدين فيها، لا يخرجون منها أبدًا؛ بسبب ما اكتسبوا من الشرك والكبائر.

[٨٢] ثم أخبر سبحانه أن الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعملوا الصالحات بإخلاص لوجه الله متبعين فيها سنة رسل الله، فأولئك هم أصحاب الجنة خالدين مخلدين فيها أبدًا بفضل الله ورحمته.

[٨٣] ثم ذكَّر سبحانه بني إسرائيل يوم أن أخذ عليهم العهود والمواثيق أن لا يعبدوا إلا الله وحده لا شريك له، وأمرهم ببر الوالدين والإحسان إليهما، وبصلة الأرحام، والإحسان إلىٰ اليتامىٰ الذين فقدوا آباءهم وهم دون سن البلوغ، والإحسان إلىٰ المحتاجين من المساكين، وأن يقولوا للناس حُسنًا؛ كبذل السلام والابتسامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك من أعمال الخير، وأمرهم أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ولكنهم أعرضوا ونقضوا العهود والمواثيق، واستمروا علىٰ إعراضهم ونقضهم للعهود إلا قليلًا منهم عصمهم الله وثبتهم علىٰ الحق.

[٨٤] ثم ذكَّر سبحانه بني إسرائيل يوم أن أخذ عليهم المواثيق والعهود الملزمة أن لا يقتل بعضهم بعضًا، ولا يُخرج بعضهم بعضًا من ديارهم، ثم اعترفوا بهذه المواثيق وشهدوا علىٰ أنفسهم بالالتزام والوفاء بها.

[٨٥] ثم وجه جل وعلا الخطاب لبني إسرائيل الموجودين في عهد النبي ﷺ؛ حيث أخبر أنهم خالفوا العهود والمواثيق التي أقروا بها وشهدوا عليها، وأنهم الآن يقتل بعضهم بعضًا؛ ويخرجون بعضهم من ديارهم، وهذا الأمر وقع بين طوائف اليهود وهم: بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وذلك قبل بعثة النبي ﷺ؛ حيث إنهم لما نزلوا المدينة وجدوا الأوس والخزرج يقتتلون؛ فقامت كل فرقة من فرق اليهود وحالفت فرقة من أهل المدينة، وكانوا إذا اقتتلوا تظاهرت كل فرقة من اليهود وأعانت حليفها من أهل المدينة بالإثم والعدوان، فيقتل اليهوديُّ اليهوديَّ ويخرجه من دياره، وبعد أن تضع الحرب أوزارها فدىٰ بعضهم بعضًا، وهم يعلمون أصلًا أن إخراجهم من ديارهم كان محرمًا.

ثم وبخهم سبحانه وأنكر عليهم؛ فقال لهم: أفتؤمنون ببعض ما شرعه الله في التوراة، وهو فداء الأسير، وتكفرون ببعض، وهو: سفك الدماء، وإخراج بعضكم بعضًا.

فاعلموا يابني إسرائيل أن عقوبة من يخالف أوامر الله فإن له الخزي والعار في الحياة الدنيا، ويوم القيامة له أشد العذاب وأعظمه، وما الله بغافل عن أعمالكم الشنيعة، وستلقون جزاء ما كنتم تعملون.

[٨٦] ثم أخبر جل وعلا أن أولئك الذين كفروا من بني إسرائيل وغيرهم الذين استحبوا الحياة الدنيا علىٰ الآخرة لن يخفَّف عنهم العذاب، وليس لهم ناصر ينصرهم من عذاب الله يوم القيامة.

[٨٧] ثم امتن جلّ وعلا علىٰ بني إسرائيل أن أعطىٰ موسىٰ عليه السلام التوراة، وأرسل من بعده رسلًا يَتْبَعُ بعضهم بعضًا، وكذلك أعطىٰ عيسىٰ بن مريم عليه السلام المعجزات الواضحات؛ كإحياء الموتىٰ، وإبراء الأكمه والأبرص، وأيده بالروح القدس، وهو جبريل عليه السلام.

وسُمِّي روحًا: لأنه يحمل الرسالات للأنبياء التي فيها حياة القلوب.

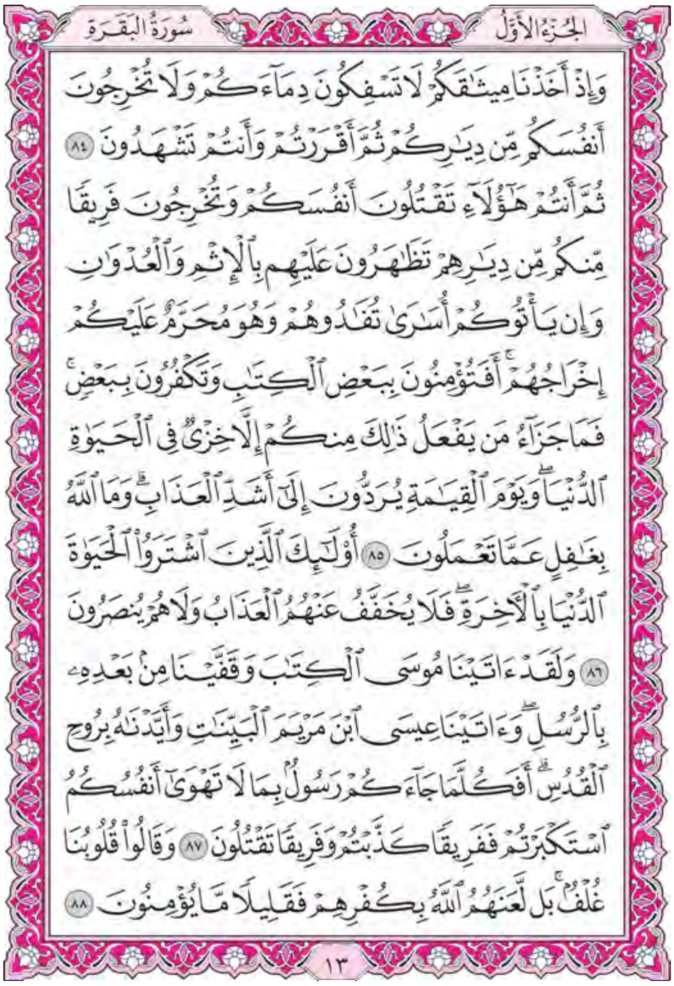
الجُزْءُ الأَوَّلُ — سُورَةُ البَقَرَةِ

وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤
ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا
مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ
وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ
إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ
فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ
ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ
٨٦ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ
بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ
ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ
ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا
غُلۡفُۢۚ بَلۡ لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨

١٣

ومع ذلك كلما جاءكم يابني إسرائيل رسول من عند الله لا يوافق أهواءكم، استعليتم عليه، وكذبتم بما جاء به من الهدىٰ عنادًا وتكبرًا؛ بل وصل بكم الأمر أن قتلتم بعض الأنبياء ظلمًا وعدوانًا.

[٨٨] ثم قال بنو إسرائيل للرسول ﷺ معتذرين له بأعذار باطلة كاذبة: يامحمد قلوبنا مغطاة بأغشية فلا نفهم ما تقول، يظنون أن هذا – بزعمهم – عذر لهم عن قبول الدعوة والإيمان بالله تعالىٰ، ولكن الله جلّ في علاه لعنهم، بأن طردهم من رحمته بسبب جحودهم وكفرهم وضلالهم، وكان هذا اللعن سببًا في أنه لم يؤمن منهم إلا نفرٌ قليلٌ؛ كعبدالله بن سلام، وأبي بن كعب، ووهب بن منبه.

وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ
وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا
جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ
(٨٩) بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ
فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ
(٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ
عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا
مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَ (٩١) ۞وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ
ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ (٩٢) وَإِذۡ
أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ
مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا
وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا
يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٩٣)

[٨٩] ثم أخبر سبحانه أن بني إسرائيل لما جاءهم القرآن المُنزل بحقٍ علىٰ محمد ﷺ مصدقًا لما معهم من التوراة، وكانوا قبل رسالته يستنصرون ويفتخرون به، ويتوعدون مشركي العرب بخروجه، وأنهم سوف يقاتلونهم معه، ولكن لما بُعِثَ ﷺ وعرفوا صفاته وصدقه، كفروا به حسدًا وبغضًا؛ لأنه لم يبعث من اليهود، ولهذا استحقوا لعنة الله؛ فلعنة الله علىٰ كل من كفر بمحمد ﷺ، وكفر بما أنزل عليه من القرآن الكريم.

[٩٠] ثم وبخ جل وعلا بني إسرائيل لأنهم باعوا أنفسهم بثمن بخس؛ فبئس ما اختاروا لأنفسهم؛ حيث اختاروا الكفر علىٰ الإيمان ظلمًا وحسدًا بأن القرآن نزل علىٰ محمد ﷺ، وقد كرهوا أن ينزل الله الوحي علىٰ غيرهم.

ثم بين سبحانه أنه يُنزل فضله علىٰ من يشاء من عباده، فالأمر أَمْرُهُ والخلق خَلْقُهُ، لكنَّ كبرياءهم حملهم علىٰ أن يحسدوا الناس علىٰ ما آتاهم الله من فضله، ولذا استحقوا غضب الله، بسبب حسدهم وجحودهم للنبي ﷺ بعد غضب الله عليهم، بسبب تحريفهم التوراة وكفرهم بعيسىٰ عليه السلام.

ثم بين سبحانه أن للكافرين من بني إسرائيل خصوصًا، وكل من كفر بآيات الله عمومًا؛ عذابًا أليمًا يُذلهم ويخزيهم يوم القيامة.

[٩١] ثم أخبر جل وعلا أن اليهود إذا أُمِرَوا بالإيمان بالقرآن الذي أُنزل علىٰ محمد ﷺ، ردُّوا قائلين: نحن لا نؤمن إلا بما أنزل الله علينا في التوراة، ونكفر بكل ما أنزل الله من الكتب السماوية، وخاصة القرآن؛ مع أن القرآن حق ومصدِّق لما جاء في التوراة.

ثم أمر عز وجل نبيه ﷺ أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في دعواكم أنكم لن تؤمنوا إلا بما أُنزل الله عليكم؛ فَلِمَ قتلتم أنبياء الله من قبل وهم منكم؟!

[٩٢] ثم ذكَّرهم جل وعلا أن موسىٰ عليه السلام جاءهم بالمعجزات وبالأدلة الواضحات المبينة، ومع ذلك فقد عبدوا العجل بعد أن ذهب موسىٰ إلىٰ ميقات ربه؛ ولهذا كانوا ظالمين متجاوزين لحدود الله.

[٩٣] ثم ذكَّر سبحانه بني إسرائيل عندما أخذ عليهم العهود والمواثيق ولكنهم نقضوها؛ فرفع سبحانه فوقهم الطور كأنه سحابة ليسقطه عليهم إن عصوه سبحانه، وليكون دليلًا علىٰ عظيم قدرته جل في علاه لعلهم يخافون ويؤمنون، ثم قال لهم جل وعلا: خذوا التوراة بجد وصدق، واسمعوا وأطيعوا، فكان جوابهم: سمعنا بالآذان وكذبنا بالجَنان والأركان؛ لأن قلوبهم شُغفت بعبادة العجل، بسبب كفرهم وجحودهم.

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المجرمين: قبحًا لهذا الإيمان الذي يأمركم بالكفر والضلال؛ إن كنتم صادقين بما أنزل الله عليكم.

قال الشيخ المفسر محمد متولي الشعراوي: إنهم قالوا: (سمعنا وأطعنا)، ولكنهم لم يطيعوا، فحكىٰ الله فعلهم وهو العصيان وَتَرَكَ قولهم: (أطعنا).

الجُزْءُ الأَوَّلُ — سُورَةُ البَقَرَةِ

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن
دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن
يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ
﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ
يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ
ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن
كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ
ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ
وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ
إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾
أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ
لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ
كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

١٥

[٩٤-٩٥] أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لليهود: إن كانت الجنة خالصة لكم من دون الناس فتمنوا الموت لتدخلوها إن كنتم صادقين في دعواكم، ولكن الله بين أنهم لن يتمنوا الموت أبدًا، بسبب أفعالهم السيئة ودعواهم الكاذبة.

ولا شك أن الموت مكروه؛ بل هو مصيبة، قال تعالىٰ: ﴿فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [المائدة:١٠٦]؛ فسماه الله مصيبة؛ بل إن آدم عليه السلام لم يستطع إبليس إغواءه إلا لمَّا ذَكَر له: أنه إذا أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها فلن يأتيه الموت، قال تعالىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ [طه:١٢٠]، أي: عدم الموت.

وقد نهىٰ النبي ﷺ عن تمني الموت حتىٰ لو كان المسلم عالمًا أنه برحمة الله من أهل الجنة؛ بل إن موسىٰ كليم الله الذي اختاره الله واصطفاه لنفسه أي لحمل رسالته لما جاءه ملك الموت لطمه، مع أن موسىٰ لا يشك في أنه برحمة الله من أهل الجنة. فهذه كلها أدلة تؤيد نهي النبي ﷺ عن تمني الموت. **ولكن يستثنىٰ من النهي بعض الحالات:** فيستثنىٰ تمني الإنسان الشهادة في سبيل الله.

ويستثنىٰ أيضًا ما يسمىٰ في عصرنا: بـ(التحدي)، **وتسمىٰ شرعًا:** المباهلة؛ سواء كانت بين طرفين كالتي طلب الرسول ﷺ من وفد نصارىٰ نجران لما خالفوه في القول بعيسىٰ ابن مريم عليه السلام، وهي المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [آل عمران:٦١]، أو من طرف واحد كالتي طُلبت من اليهود في هذه الآية، أو في سورة الجمعة، وهي أن يدعو الإنسان علىٰ نفسه بالهلاك واللعنة إن كان كاذبًا في دعواه. وفي مسند أحمد عن ابن عباس: (ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار)[١]. أما وفد نصارىٰ نجران فوافقوا علىٰ المباهلة ثم لم يفعلوا ودفعوا الجزية. وأما اليهود فلم يوافقوا لأنهم يعلمون أنهم كاذبون.

ثم ختم سبحانه الآيتين فأخبر أنه عليم بالظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، وسينالون جزاءهم علىٰ ظلمهم وكفرهم.

[٩٦] واعلم يانبي الله أن اليهود من أشد الناس حبًّا وتعلقًا بالبقاء في الحياة الدنيا؛ بل أشد حرصًا علىٰ الحياة من المشركين، وإنَّ أحدهم يتمنىٰ لو يعيش ألف سنة لشدة حرصه علىٰ الحياة، أو لِشَكِّهِ في الآخرة، ثم بين سبحانه أنهم لو عمَّروا هذه السنين الطويلة فإن ذلك لن يُنجِيَهم من عذاب الله، واعلموا أن الله مطلع علىٰ أعمال عباده لا تخفىٰ عليه خافية أبدًا.

[٩٧] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لليهود: اعلموا أيها اليهود أن من كان عدوًّا لجبريل فإنه عدو لله، لأن جبريل هو الأمين علىٰ وحي الله يبلغه لجميع رسله، وهو الذي نزل بالقرآن علىٰ قلب محمد ﷺ، وهذا القرآن مصدق لما قبله من الكتب، ومبشر بالجنة للمؤمنين المصدقين.

[٩٨] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أن من عادىٰ الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال؛ فإن الله عدو للكافرين الجاحدين للحق، وما أُنزل علىٰ محمد ﷺ.

[٩٩] واعلم يانبي الله أن الله جل وعلا أنزل إليك آيات بينات واضحات الدلالة، وما يكفر بهذه الآيات ويجحدها إلا من فسق عن أمر ربه وخرج عن طاعته.

[١٠٠] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء اليهود كلما عاهدوا عهدًا نقضه فريق منهم، فهم قوم ليست لهم عهود، ثم بين سبحانه أن أكثر هؤلاء اليهود لا يؤمنون بالتوراة التي أنزلها سبحانه علىٰ رسولهم، والسبب أنهم قومٌ بهتٌ طبيعتهم الكذب، كما قال ذلك عنهم حبرهم عبدالله بن سلام لرسول الله ﷺ؛ فهم يعرفون أن محمدًا ﷺ صادقٌ كما يعرفون أبناءهم، ولكن حيث إن الوحي لم ينزل عليهم فإن الحسد أعمىٰ قلوبهم.

[١٠١] وأخبر جل وعلا أن هؤلاء اليهود لما جاءهم النبي ﷺ من عند الله مصدقًا للتوراة في أصول الدين، ومقرًّا لنبوة موسىٰ عليه السلام؛ كذَّب علماؤهم التوراة وطرحوها وراء ظهورهم عنادًا وتكبرًا؛ لأنها أخبرت بنبوة محمد ﷺ، ثم بين سبحانه أنهم تركوا التوراة وأعرضوا عنها وكأنهم لا يعلمون ما فيها من الأمر باتباع محمد ﷺ وتصديقه.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٢٥)، والبزار في مسنده (٤٨١٤).

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ
سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ
السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ
وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا
تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ
وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ
اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ
أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا
لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا
وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

[١٠٢] أخبر جل وعلا أن اليهود نبذوا التوراة وراء ظهورهم واتبعوا ما تقوله الشياطين من السحر؛ حيث زعموا أن سليمان عليه السلام ساد أهل زمانه به، ولكن بين سبحانه أن سليمان لم يكفر لأنه لم يتعلم السحر ولم يستخدمه، أما الشياطين فقد كفروا لأنهم علموا الناس السحر لإضلالهم وإفسادهم، وكذلك اتبعوا السحر الذي أُنزل علىٰ الملكين هاروت وماروت بأرض بابل بالعراق، والملكان أُنزلا ابتلاء من الله ولحكمة بالغة، وقد صرّحا أنهما أُنزلا ابتلاءً، وحذَّرا كل من يأخذ علم السحر منهما من الوقوع في الكفر، ومع ذلك استمر الناسُ في تعلُّم السحر منهما؛ بل في تعلم أقبح أنواعه وهو التفريق بين الرجل وزوجه، مع أن السحرة لا يستطيعون الإضرار بأحد إلا بإذن الله وقضائه، ومعلوم أن السحرة إنما يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علم اليهود أن من تعلم السحر وترك الحق وهو الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ليس له في الآخرة نصيب من الرحمة والثواب، ويالخسارة ما استعاضوا به من تركهم الإيمان واتباع الرسل وتعلقهم بالسحر والدجل؛ لو كان عندهم علم أو عقل يحملهم علىٰ التمييز بين الحق والباطل والنافع والضار.

وقد اختلف أهل العلم في السحر:

هل هو ثابت وله حقيقة؟

أم أنه مجرد تخيلات؟.

والجواب: أن مذهب الجمهور ثبوت السحر، وأن له حقيقة، أما المعتزلة فقالوا: لا حقيقة له؛ بل هو تخيل.

والحق أن السحر نوعان:

الأول: حقيقة، أي: ينفذ في الجسم، ويُمرض، ويُفرق بين المرء وزوجه.

والثاني: تخييل، أي: يُخيل لك أن الحبل حية، ونحو ذلك.

[١٠٣] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء اليهود لو آمنوا بالنبي ﷺ، وما أُنزل عليه من القرآن، واجتنبوا ما وقعوا فيه من السحر والكفر لحصلوا علىٰ منافع كثيرة، ومن ذلك ثواب الله الذي هو خير لهم مما اختاروا لأنفسهم لو كانوا يعلمون أن ثواب الله خير لهم من السحر، وخير لهم مما اكتسبوا به؛ بل وخير لهم من الدنيا وما فيها.

[١٠٤] ثم أمر سبحانه وتعالىٰ عباده المؤمنين أن يراعوا الأدب في مخاطبة الرسول ﷺ تجنبًا لبعض الكلمات التي تحمل أكثر من معنىً مثل كلمة: ﴿رَٰعِنَا﴾؛ حيث إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يقولون للرسول ﷺ: ﴿رَٰعِنَا﴾، أي: راعي أحوالنا وأمهلنا، ولكن اليهود بعد أن سمعوها أخذوا يقولونها علىٰ سبيل السب، أي: من الرعونة وهو الحمق، فنهىٰ الله المؤمنين أن يقولوها، وأمرهم أن يقولوا بدلًا منها: ﴿ٱنظُرْنَا﴾، أي: أمهلنا وترفق بنا، فعليكم أيها المؤمنون أن تسمعوا لما تؤمرون به من طاعة الله ورسوله ﷺ، ثم توعد جلّ وعلا الكافرين من اليهود وغيرهم بالعذاب الأليم الموجع.

[١٠٥] يخبر جلّ وعلا أن الكفار من اليهود والنصارىٰ ومشركي العرب لا يريدون أن يُنزِّل الله علىٰ رسوله وعلىٰ المؤمنين منكم أدنىٰ خير من قرآن أو علم أو نصر أو بشارة؛ حسدًا منهم وبغضًا بكم، ولكن اعلموا أيها الكفار أن الله يختص برحمته من يشاء من عباده بالنبوة أو الرسالة، وقد اختص محمدًا ﷺ بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، ولذا فلن يضره حسد الحاسدين ولا جحودهم، ثم بين جل في علاه أنه صاحب الفضل العظيم والمنّة الكبرىٰ علىٰ عبادة المؤمنين، وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

[١٠٦] يخبر جل وعلا أنه ما يبدل من آية من حكم إلىٰ حكم، أو يمحُها من القلوب؛ إلا ويأت بأفضل وأنفع منها، أو مثلها في النفع والفضل، لحكمة يعلمها سبحانه، والنسخ خاص بالأوامر والنواهي، أما الأخبار فلا يدخلها النسخ، وقد كان اليهود يُنكرون النسخ مع أنه مذكور عندهم في التوراة، ثم ختم سبحانه الآية قائلًا علىٰ سبيل التقرير: ألم تعلم يانبي الله أن الله قادر علىٰ كل شيء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؟.

[١٠٧] ثم أقام جل وعلا دليلًا واضحًا بيِّنًا علىٰ قدرته فقال سبحانه علىٰ سبيل التقرير: ألم تعلم يانبي أن الله يملك كل ما في السماوات والأرض، وهو المتصرف فيهما، يفعل فيهما ما يشاء؟ ثم بين سبحانه أنه ليس للناس من ولي غير الله يتولىٰ أمورهم ويرعىٰ شؤونهم ومصالحهم، وليس لهم نصير ينصرهم إلا الله وحده، ومن كان الله وليه ونصيره فنعم المولىٰ ونعم النصير.

[١٠٨] ثم أنكر عز وجل علىٰ الذين يكثرون سؤال النبي ﷺ، فقال سبحانه: أتريدون أن تكثروا علىٰ نبيكم محمد ﷺ أسئلة التعنت والعناد والمكابرة، كما فعل بنو إسرائيل مع موسىٰ؛ حيث كانوا يكثرون من أسئلة التعنت والعناد، كقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥]، وقولهم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]، وغير ذلك.

أما سؤال التعلم والتفقه والاسترشاد فهذا مطلوب وممدوح، واعلموا أيها الناس أن من اختار الكفر علىٰ الإيمان فقد ضل صراط الله المستقيم.

[١٠٩] ثم يخبر جل وعلا أن أكثر أهل الكتاب يتمنون أن ترجعوا أيها المؤمنون بعد إيمانكم كفَّارًا حسدًا من عند أنفسهم، بعد أن تبين لهم أنكم علىٰ الحق؛ فاعفوا واصفحوا وتجاوزوا عمَّا كان منهم، من إساءة وخطأ وجهل حتىٰ يأذن الله بقتالهم، واعلموا أن الله علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[١١٠] ثم أمر سبحانه المؤمنين بإقامة الصلاة علىٰ الوجه الأكمل كما شرع الله، وإخراج زكاة أموالهم لمستحقيها طيبة بها نفوسهم، واعلموا أيها الناس أن ما تقدمونه من خير وعمل صالح سوف يعود نفعه عليكم، وستجدونه عند الله يوم القيامة؛ فإنه مطلع علىٰ أعمالكم وسيجازيكم عليها؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ
اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ
اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ
كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا
مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا
وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا
لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا
أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ
أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

[١١١] يخبر سبحانه وتعالىٰ أن اليهود يدَّعون أنه لن يدخل الجنة إلّا من كان يهوديًّا، وأن النصارىٰ يدَّعون أنه لن يدخل الجنة إلّا من كان نصرانيًّا، ثم أخبر جل وعلا أن هذه الدعاوىٰ باطلة، وما هي إلا أماني وأوهام وافتراءات فاسدة؛ ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم: أعطوني دليلكم علىٰ هذه الدعاوىٰ إن كنتم صادقين؟

[١١٢] ثم إن الله جل وعلا كذبهما بقوله: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾، أي: لن يدخل الجنة إلا من أخلص أقواله وأعماله لله وحده لا شريك له، واتبع الهدىٰ الذي جاءت به الرسل، ثم أخبر سبحانه أن من كانت هذه صفاتهم فإن لهم أجرًا وثوابًا عظيمًا عند الله، وهو دخول الجنة مطمئنين لا يخافون من عذاب النار في الآخرة، ولا يحزنون علىٰ ما فاتهم من نعيم الدنيا؛ لأن الله سوف يعوضهم بالأجمل والأكمل في الجنة.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ
لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ
قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن
مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ
أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى
ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ
وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾
وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ
كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ
قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ
بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

[١١٣] يخبر جل وعلا أن كلًّا من اليهود والنصارىٰ لا يعترف بالآخر؛ مع أنهم يقرؤون التوراة والإنجيل، ويعلمون ما فيهما من وجوب الإيمان بجميع الرسل؛ بل قال اليهود أشنع من هذا؛ قالوا: إن عيسىٰ عليه السلام وَلَدُ بَغِيٍ، أي: ولد زنا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، والعياذ بالله من قذف المحصنات الطاهرات، ثم قال سبحانه: وكما أن اليهود والنصارىٰ يكفر كل منهما الآخر، فإن مشركي العرب وغيرهم كل منهم يضلل الآخر ويكفره؛ واعلموا أيها الناس أن الله سوف يحكم بينكم يوم القيامة بحكمه العدل فيما كنتم فيه تختلفون.

[١١٤] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أنه لا أحد أشد ظلمًا من الذين منعوا ذكر الله في المساجد، واجتهدوا في تخريبها بالهدم أو الإغلاق ونحو ذلك، وكان الأولىٰ بهم أن يدخلوا هذه المساجد وهم علىٰ وجل وخوف من الله، ولذا كانت عقوبة الذين سعوا في تخريب المساجد الخزي والعار والفضيحة في الدنيا، والعذاب الأليم الشديد في الآخرة، نسأل الله العفو والعافية.

[١١٥] ثم أخبر جلّ وعلا أنه يملك مشارق الأرض ومغاربها وما بينهما، فأينما توجهتم أيها الناس في أرض الله الواسعة وأردتم الصلاة فتوجهوا إلىٰ الجهة التي يغلب علىٰ ظنكم أنها القبلة، أي: البيت العتيق، وبهذا تكونوا قد أديتم ما أمركم الله به، واعلموا أن الله واسع عليم يسع علمه كل شيء.

وهذه الآية دليل علىٰ وجوب أداء الصلاة في أي مكان من الأرض إذا حضر وقتها.

وفيها إثبات صفة الوجه لله كما يليق بجلاله، وأن له وجهًا لا يشبه الوجوه المعروفة لنا.

وقد سئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله عن هذه الآية، فقال السائل: هذه الآية يُفهم منها أن الله في كل مكان، ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤].

فأجاب: إن من يقول: إن الله في كل مكان؛ كافر، ثم قال: هذه آيات متشابهة قد يُفهم منها ما ذكره السائل، وقال: إن المُجمل يُحمل علىٰ المُفصَّل، والمتشابه يحمل علىٰ المصرح الموضّح. ثم ذكر الآيات التي تثبت استواءَه علىٰ العرش، وحديث الجارية التي سألها الرسول ﷺ: «أين الله؟» فقالت: في السماء[1]، **ثم قال:** إن هذه الجارية علىٰ مذهب هؤلاء الذين يتبعون المتشابه كافرة.

وقال أيضًا: ومن الآيات التي تدل علىٰ أنه في السماء، قوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلىٰ:١]، ولم يقل: الأسفل، ولا الذي في كل مكان. وهناك أدلة كثيرة لا يسع المقام لذكرها تصرح أن الله فوق عرشه، وأن العرش أعلىٰ المخلوقات فوق السماء السابعة، وهو سقف العالم.

[١١٦] ثم أخبر جل وعلا بمقولة اليهود: أن عزيرًا ابن الله، ومقوله النصارىٰ: أن المسيح ابن الله، ومقوله مشركي مكة: أن الملائكة بنات الله، فكذبهم الله جميعًا، وأخبر أنه تنزَّه وتقدّس عن هذا القول الآثم الذي نسبوه له جلّ وعلا؛ وأخبر أن جميع من في السماوات والأرض عبدٌ خاضعٌ له، وتحت تصرفه وحكمه وتدبيره.

[١١٧] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أنه خالق السماوات والأرض ومبدعهما علىٰ غير مثال سابق، وإذا أراد سبحانه أن يخلق شيئًا فإنما يقول له: (كن) فيكون.

وأُنبه هنا إلىٰ مقولة بعض الناس: إنما أمره بين الكاف والنون، وهذا القول خطأ، والصواب أن يقال: إنما أمره بعد الكاف والنون.

[١١٨] ثم أخبر جل وعلا أن أهل الكتاب والمشركين قالوا للرسول ﷺ: لن نؤمن يا محمد حتىٰ يكلمنا الله مباشرة ويخبرنا أنك رسول، أو تأتينا علامة تدل علىٰ نبوتك وصدقك، ومثل هذا القول قالت به اليهود والنصارىٰ من قبل؛ وهذا دليل علىٰ أن قلوبهم قد تشابهت في الكفر والضلال، ثم أخبر سبحانه أنه بيَّن الآيات ووضحها لمن يعترفون بالحق ويصدقون به تصديقًا جازمًا.

[١١٩] ثم أخبر المولىٰ عز وجل أنه أرسل نبيه محمدًا ﷺ بهذا الدين الحق المُؤيَّد بالأدلة والبراهين، وأنه أرسله مبشرًا للمؤمنين بخيري الدنيا والآخرة، ومخوفًا الكافرين من عذاب الله، وأخبره أنه ليس مسئولًا عن كفر وضلال هؤلاء المشركين الكفار بعد البلاغ؛ فإنهم هم وحدهم مسئولون عن مصيرهم وهو دخول النار وبئس المصير.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧).

[١٢٠] يخبر جلّ وعلا أن اليهود والنصارىٰ لن يرضوا عن النبي ﷺ حتىٰ يترك دينه ويتبع دينهم، لذا أمره سبحانه وتعالىٰ أن يقول لهم: اعلموا ياأهل الكتاب أن الدين الصحيح الذي هداني الله إليه هو دين الإسلام، ثم بين له جل في علاه أنه إذا اتبع أهواءهم وتشبَّه بهم بعد الحق الذي جاءه من عند الله؛ فليس له من الله وليٌّ يتولاه وينفعه، ولا نصير ينصره.

وهذا الخطاب وإن كان موجَّهًا للرسول ﷺ فإن المقصود به أن يبلغ أمته ذلك؛ لأنه معصوم مما هو أقل من ذلك.

[١٢١] ثم أخبر جلّ وعلا أن الذين أنزل عليهم الكتاب من اليهود والنصارىٰ وقرأوه قراءة صحيحة واتبعوه حق الاتباع، فأولئك هم المؤمنون بالله وبمحمد ﷺ وبما أُنزل عليه، كعبدالله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود والنصارىٰ، أما الذين بدّلوا وحرّفوا فأولئك كفروا بمحمد ﷺ وبما أُنزل عليه، وهؤلاء هم أشد الناس خسرانًا عند الله يوم القيامة.

[١٢٢] ثم كرر المولىٰ سبحانه وتعالىٰ النداء لبني إسرائيل وأمرهم أن يتذكروا نعم الله الكثيرة عليهم، وذلك بأن يتذكروها بقلوبهم، ويتذكروها بألسنتهم، ويتذكروها بجوارحهم، لأن شكر النعم يكون بهذه الأمور الثلاثة: القلب واللسان والجوارح، ومن النعم التي أنعم الله بها عليهم أنه فضل آباءهم أتباع موسىٰ عليه السلام علىٰ عالِمِي زَمَانِهم؛ لأن أتباعَ كل نبي مفضَّلون علىٰ عالِمِي زمانهم، ولا شك أن تفضيل الآباء شرف للأبناء، وتفضيل الله لهم كان بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأنه جعل منهم سادة وملوكًا لاتِّبَاعِهِم لِهُدَىٰ الله.

[١٢٣] ثم أمر جل وعلا بني إسرائيل أن يخافوا يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا يُغني فيه أحد عن أحد شيئًا، ولا يقبل الله في ذلك اليوم من كافر فدية، ولا تنفع الشفاعة أحدًا كفر بالله ورسوله ﷺ، ولا يملك أحد في ذلك اليوم أن يُعِينَ كافرًا، أو ينصره، أو ينجيه من عذاب الله الشديد.

[١٢٤] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أنه امتحن عبده وخليله إبراهيم عليه السلام بجملة من التكاليف الشرعية، وبين جل وعلا أن إبراهيم عليه السلام أتمها وقام بها أحسن قيام؛ ولذا فإن الله شكره وكافأه بأن جعله إمامًا للناس في الدين؛ ثم إن إبراهيم عليه السلام طلب من ربه أن تُمْنَحَ الإمامة أيضًا لذريته من بعده، فقال سبحانه: اعلم يا إبراهيم أن الإمامة في الدين أمرها عظيم، ولذا لن ينالها أحد ظلم نفسه بالكفر والمعاصي.

[١٢٥] ثم أخبر المولىٰ عز وجل نبيه ﷺ أنه جعل هذا البيت وهو الكعبة قبلة للناس يستقبلونها ويتوجهون إليها، ومرجعًا يرجعون إليه، ومجمعًا لهم في الحج والعمرة، وجعله أيضًا بيتًا آمنًا لا يخاف فيه أحد، وهذا الجعل شرعي تكليفي، ثم أمر سبحانه الناس أن يتخذوا من مكان إبراهيم عليه السلام مكانًا للصلاة فيه، ثم أوحىٰ عز وجل إلىٰ إبراهيم وابنه إسماعيل بتطهير البيت من الأوثان والكفار والنجاسات؛ لكي يكون مهيئًا لمن أراد أن يطوف أو يعتكف أو يصلي فيه.

ولاحظ أن الله جل في علاه قال في هذه الآية: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ﴾، ولم يقل: (البلد) كما قال في سورة إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ﴾ [إبراهيم:٣٥]؛ لأن البيت لم يكن وقت مجيء هاجر وابنها قائمًا معمورًا، وإنما عمر واستوطن بعد أن كبر إسماعيل وساعد أباه في بناء الكعبة.

[١٢٦] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن إبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يجعل مكة بلدًا آمنًا، وأن يرزق أهلها من كل أنواع الثمرات، ثم إن إبراهيم قيّد هذا الرزق بالمؤمنين الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، فقال له جلّ في علاه: ومن كفر منهم يا إبراهيم سوف نرزقه أيضًا في الدنيا كسائر الناس، ونمتعه متاعًا قليلًا، ثم يرد إلينا يوم القيامة مرغمًا ومكرهًا لنذيقه عذاب النار؛ فبئست النهاية وبئس المصير للكافرين.

وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ
مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ
لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ
يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ
وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ
إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ
وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ
قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ
وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ
ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ
إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا
وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ
وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

[١٢٧] ثم بيَّن جل وعلا لنبيه ﷺ حال إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عندما كانا يبنيان الكعبة ويرفعان قواعدها؛ حيث كانا يدعوان الله بهذه الأدعية المباركة قائلين: ياربنا تقبل منا هذا العمل المبارك، واجعله خالصًا لوجهك الكريم، فإنك يارب أنت السميع لأقوال عبادك، العليم بأعمالهم وأحوالهم.

[١٢٨] ثم إن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام دَعَوْا لأنفسهما وذريتهما بالبقاءِ علىٰ دين الإسلام، فهو أعظم نعمة يمنُّ الله بها علىٰ عباده، ثم سألا الله جل في علاه أن يعلمهما أمور دينهما وعبادتهما عمومًا، وما يتعلق بأعمال الحج خصوصًا؛ كالطواف والسعي والوقوف وغير ذلك، ثم سألاه سبحانه أن يمنَّ عليهما بالتوبة النصوح؛ لأن العبد عرضة للذنب والتقصير، فإنك يارب كثير التوبة لعباده واسع الرحمة بهم.

[١٢٩] ثم سأل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الله جل في علاه أن يبعث في هذه الأمة رسولًا من ذريتهم، يتلو عليهم آيات الله، ويعلمهم القرآن والفقه، وأمور دينهم، ويطهرهم من الكفر الشرك وسائر الذنوب والمعاصي؛ فاستجاب سبحانه لدعائهم؛ فبعث فيهم رسوله محمدًا ﷺ، وقد روي أنه ﷺ كان يقول: «**أنا دعوة أبي إبراهيم**»(١).

ثم ختم سبحانه الآية بقول إبراهيم عليه السلام: إنك يارب أنت العزيز الذي لا يغلبك أمر، ولا يمتنع عليك أحد، والحكيم الذي تضع الأشياء في مواضعها.

[١٣٠] ثم بين جل في علاه أن من يختار دينًا غير دين إبراهيم عليه السلام فهو سفيه جاهل؛ لأن الله اصطفىٰ إبراهيم في الدنيا وجعله نبيًّا ورسولًا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين الذين لهم أعلىٰ الدرجات.

[١٣١] ثم بين جل وعلا أن سبب هذا الاصطفاء أن إبراهيم عليه السلام انقاد لأمر الله قولًا وعملًا دون تردد؛ عندما أمره بالإسلام والتوحيد لله رب العالمين.

[١٣٢] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن إبراهيم ويعقوب عليها السلام حثَّا أبناءَهما علىٰ الثبات علىٰ الإسلام، فقالا: إن الله اختار لكم هذا الدين وهو الإسلام فلا تتركوه ولا تفارقوه، ولا تموتوا إلا وأنتم علىٰ ملة الإسلام.

[١٣٣] ثم خاطب جل وعلا اليهود فقال لهم مستنكرًا: هل كنتم حاضرين حين جاء يعقوب الموتُ؛ حيث جمع أبناءه وسألهم علىٰ وجه الاختبار: ما تعبدون من بعد موتي؟ فقالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا لا شريك له، ونحن منقادون وخاضعون له؛ فجمعوا بين التوحيد والعمل.

[١٣٤] ثم أخبر جل شأنه أن تلك الجماعة من الأنبياء والرسل وأتباعهم من المؤمنين الذين قصصنا عليكم شيئًا من سيرتهم مع أقوامهم مضوا وانتهوا، وأن لهم أعمالهم، ولكم أعمالكم، وكل سيجازىٰ بما قدم، ولن يؤاخذ أحد بذنب غيره، ولن ينفع الإنسان يوم القيامة إلا إيمانه وتقواه، وما نشره من الأعمال الصالحة المتعدي نفعها والذرية المؤمنة.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٥٦٦) وصححه، والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ٨٣)، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٣٥ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن
رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ١٣٦
فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا
فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
١٣٧ صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ
عَابِدُونَ ١٣٨ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ١٣٩
أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ
اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ
بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٠ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٤١

[١٣٥] ثم أخبر جل وعلا أن اليهود قالوا لأتباع النبي ﷺ: كونوا يهودًا لأن الهدىٰ معنا، وأن النصارىٰ قالوا لهم: كونوا نصارىٰ لأن الهدىٰ معنا، فأمره سبحانه وتعالىٰ أن يقول لهم: بل الواجب أن نتبع جميعًا دين إبراهيم عليه السلام، دين الحنيفية السمحاء التي مالت عن كل دين باطل، ثم بين جل علا أن إبراهيم عليه السلام لم يكن من المشركين الضالين.

[١٣٦] ثم وجه جل وعلا الخطاب للمؤمنين آمرًا لهم أن يقولوا لليهود والنصارىٰ: لقد آمنا بالله وحده لا شريك له، وآمنا بما أنزل إلينا من القرآن، وما سنّه لنا نبينا محمد ﷺ، وآمنا بالصحف التي أنزلت علىٰ إبراهيم وابنيه إسماعيل واسحاق، ويعقوب والأسباط، وهم: الأنبياء من ولد يعقوب، وهم اثنا عشر سبطًا، وآمنا بالتوراة التي أعطيت لموسىٰ عليه السلام، وبالإنجيل الذي أعطي لعيسىٰ عليه السلام، وآمنا بكل ما أعطي النبيون من وحي ربهم، لا نفرق بينهم؛ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض!! بل نؤمن بجميع الرسل، ونحن منقادون إلىٰ ربنا خاضعون له بالطاعة والعبادة، معلنين هذا المعتقد وهذا المبدأ علىٰ الملأ، لا نخاف في الله لومة لائم.

[١٣٧] ثم بين جل وعلا أن أهل الكتاب إذا آمنوا بالله إيمانًا كإيمانكم مماثلًا له من كل الوجوه؛ فقد اهتدوا إلىٰ الحق وإلىٰ الصراط المستقيم، وإن أعرضوا وجانبوا الحق فإنهم في خلاف وتفرق وفتنة، واعلم يانبي الله أن الله سوف يكفيك شرّهم ومكرهم وينصرك عليهم، فإنه سبحانه هو السميع لأقوالكم، فلا تختلف عليه اللهجات وتعدد اللغات، والعليم بالظواهر والبواطن، فلا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

[١٣٨] ثم أخبر جل وعلا أن هذا دين الله فالتزموه وتمسكوا به وقوموا به قيامًا تامًّا، فليس هناك دين أحسن من دين الله، ولا هَدْيَ أحسن من هَدْيِ الله، وقولوا لكل الناس: نحن طائعون لربنا منقادون لأوامره مخلَصون له وحده.

[١٣٩] ثم أمر سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يقول لأهل الكتاب: أتجادلوننا في دين الله وهو ربنا وربكم، وخالقنا وخالقكم، ورازقنا ورازقكم، وكل منا ومنكم له عمله، فكيف بعد ذلك تدّعون أنكم أولىٰ بالله منّا؟! وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، ولذا تعين أن يكون المؤمنون هم أولىٰ بالله من غيرهم لأنهم أخلصوا لله وحده لا شريك له.

[١٤٠] ثم أخبر المولىٰ عز وجل عما يزعمه اليهود أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط الاثني عشر الذين هم من ولد يعقوب كانوا يهودًا، ويزعم النصارىٰ أنهم كانوا نصارىٰ، وهذا كذب وافتراء علىٰ أنبياء الله، ولذا أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم: أأنتم أعلم أم الله؟! فالله سبحانه أخبرنا أنهم مسلمون.

ثم بين جل وعلا أنه لا أحد أشد ظلمًا ممن أخفىٰ الحقيقة التي بينها ووضحها سبحانه في التوراة والإنجيل، وهي أن الأنبياء كانوا علىٰ الإسلام، ثم بين سبحانه أنه ليس بغافل عن شيء من أعمالكم القبيحة ياأهل الكتاب؛ بل إنه جل في علاه محصيها لكم وسيجازيكم عليها.

[١٤١] ثم كرر جل وعلا هذه الآية فأخبر أن تلك الجماعة من الأنبياء والرسل وأتباعهم من المؤمنين الذين قصصنا عليكم شيئًا من سيرتهم مع أقوامهم مضوا وانتهوا، وأن لهم أعمالهم، ولكم أعمالكم، وكل سيجازىٰ بما قدم، ولن يؤاخذ أحد بذنب غيره، ولن ينفع العبد يوم القيامة إلا إيمانه وتقواه، وما نشره من الأعمال الصالحة المتعدي نفعها والذرية المؤمنة.

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ
عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ
مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ
شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا
جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ
مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ
هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ
بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ
فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ
ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ
بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ
وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ
بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥

[١٤٢] يخبر جل وعلا أن السفهاء والجهلاء من اليهود وأمثالهم سيقولون: لماذا ترك محمد وأصحابه قبلتهم التي كانوا يتوجهون إليها، وهي بيت المقدس، وتوجهوا إلىٰ الكعبة؟! فأمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أن المشرق والمغرب وما بينهما ملك لله وحده لا يشاركه فيها أحد من خلقه، وأنه سبحانه يهدي من يشاء من عباده إلىٰ طريق الهداية والاستقامة.

[١٤٣] ثم أخبر جلّ وعلا أنه كما هداكم أيها المؤمنون إلىٰ دين الإسلام، وإلىٰ قبلة أبيكم إبراهيم عليه السلام، فكذلك جعلكم عدولًا خيارًا لا إفراط ولا تفريط؛ لتشهدوا علىٰ الأمم يوم القيامة أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، ويكون الرسول ﷺ شهيدًا عليكم فيزكيكم ويشهد بصدقكم، ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ أنه ما جعل القبلة التي كان يصلي لجهتها وهي بيت المقدس ثم حوَّله إلىٰ الكعبة؛ إلا امتحانًا واختبارًا للناس ليتبين من يتبعه ويؤمن به، ومن يرفض ويرتد عن دينه، وبين سبحانه أنه يعلم أن تحويل القبلة أمر عظيم وشاق إلا علىٰ الذين هداهم الله، ومنَّ عليهم بالإيمان والتقوىٰ، واعلموا أيها المؤمنون أن الله ما كان ليضيع إيمانكم - أي: صلاتكم - قبل تحويل القبلة، وسمَّىٰ سبحانه الصلاة إيمانًا تعظيمًا لشأنها.

ثم ختم جل شأنه الآية مخبرًا أنه رؤوف بعباده المؤمنين وأنه رحيم بهم، ومن رحمته فإنه لن يضيع سبحانه صلاة من مات قبل تحويل القبلة، وذلك أن بعضهم سأل رسول الله ﷺ عن صلاة أولئك الذين ماتوا قبل تغيير القبلة هل هي باطلة أم لا؟

وقد أخبر سبحانه في مواضع من كتابه أنه لا يضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثىٰ، قال تعالىٰ: ﴿**أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ**﴾ [آل عمران:١٩٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ **وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا** ﴾[النساء:١٢٤]، وغيرها من الآيات.

[١٤٤] ثم يقول جل وعلا لنبيه ﷺ: إننا نرىٰ كثرة نظرك إلىٰ السماء يانبي الله شوقًا وانتظارًا لنزول الوحي في شأن القبلة؛ فالآن سوف نوجِّهك إلىٰ قبلة تحبها وترضاها.

ثم أمره سبحانه وتعالىٰ أن يتوجَّه في صلاته إلىٰ جهة الكعبة، وأمر المسلمين في أي مكان كانوا وأرادوا الصلاة أن يتوجهوا إلىٰ الكعبة.

واعلم يانبي الله أن الذين أعطيناهم الكتاب من اليهود والنصارىٰ يعلمون أنك علىٰ حق في استقبال الكعبة، ولكنهم عاندوا وكابروا بغيًا وحسدًا، وما الله بغافل عن أعمالهم فإنه محصيها لهم وسيجازيهم عليها.

[١٤٥] ثم أخبر جل شأنه نبيه ﷺ أنه لو جاء لهؤلاء اليهود والنصارىٰ بكل برهان ودليل علىٰ أن توجهك إلىٰ الكعبة هو الحق فإنهم لن يتبعوا قبلتك عنادًا واستكبارًا، وأيضًا فإنه لا يجوز لك أن تعود مرة أخرىٰ فتستقبل قبلتهم، كما أن اليهود والنصارىٰ لن يتبع بعضهم قبلة بعض، واعلم يانبي الله أنك إذا اتبعتَ أهواء اليهود والنصارىٰ الباطلة بعد أن عرفتَ الحق فإنك حينئذ ظالم لنفسك.

وهذا الخطاب وإن كان موجهًا للنبي ﷺ فإن أمته هي المقصودة أيضًا؛ لأنه ﷺ معصوم مما هو أقل من ذلك؛ ولأن الله حقق رغبته في الاتجاه إلىٰ الكعبة.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ
وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ
مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ
هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ
جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ
فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ
وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا
وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ
وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو
عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ
وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾

[١٤٦] يخبر جلّ وعلا أن اليهود والنصارىٰ يعرفون محمدًا ﷺ ويعرفون أنه مرسل من عند الله، كما يعرفون أبناءهم، ولكن طائفة منهم يكتمون الحق بغيًا وحسدًا؛ مع أنهم يعلمون أنه مرسل من عند رب العالمين.

[١٤٧] واعلم يانبي الله أن هذا الذي أُنزل عليك وهو القرآن الكريم هو الحق من ربك؛ فلا تكونن من الشاكّين فيه.

وهذا الخطاب وإن كان موجهًا للنبي ﷺ إلا أن المقصود: إبلاغ أمته؛ لأنه معصوم ﷺ من الشك، ومما هو أقل من ذلك.

[١٤٨] ثم يخبر جل وعلا أن لكل أهل ديانة شريعة وقبلة يتوجهون إليها، ولا يعني هذا إقرار الكفار علىٰ كفرهم، وإنما المقصود تسلية المؤمنين وتثبيتهم علىٰ الحق الذي هم عليه؛ ولهذا أمر سبحانه المؤمنين بالمبادرة إلىٰ ما أمرهم به من فعل الخيرات، وذلك باستقبال الكعبة التي وجههم إليها، واعلموا أيها الناس أينما تكونوا؛ سواء كنتم في بر أو بحر أو جو؛ فإن الله سوف يجمعكم يوم القيامة جميعًا، ثم يجازيكم علىٰ أعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فإنه سبحانه علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض، ولا في السماء.

[١٤٩] ثم خاطب جلّ وعلا نبيه ﷺ لإبلاغ أمته فقال سبحانه وتعالىٰ: ومن أي مكان خرجت يانبي الله قاصدًا السفر فتوجه في صلاتك إلىٰ المسجد الحرام، واعلم يانبي الله أن هذا هو الحق من ربك، وما الله بغافل عما تعملون أيها الناس من الأعمال، وسوف يجازيكم عليها.

[١٥٠] ثم كرر جلّ وعلا الأمر لنبيه ﷺ بالتوجه إلىٰ المسجد الحرام، فقال له: ومن أي مكان خرجت يارسول الله فتوجه في صلاتك إلىٰ المسجد الحرام، ثم أمر سبحانه المؤمنين في أي موضع من الأرض كانوا أن يتوجهوا في صلاتهم إلىٰ المسجد الحرام؛ لكي لا يكون للمخالفين من أهل الكتاب احتجاج عليهم بالمخاصمة والمجادلة، إلا أهل الظلم والعناد منهم؛ فهؤلاء لا سبيل لإقناعهم، ثم أمر سبحانه المؤمنين أن لا يخافوا من هؤلاء المجرمين من أهل الكتاب، وعليهم أن يخافوا من الله وحده، وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، واعلموا أيها الناس أن الله أمركم بالتوجه للمسجد الحرام لكي يتم عليكم نعمته وهو التوجه لأفضل بيت بناه؛ لعلكم تهتدون إلىٰ ما ضلت عنه الأمم السابقة.

[١٥١] ثم بين سبحانه أنه كما أنعم عليكم أيها الناس باستقبال الكعبة؛ فقد أنعم عليكم من قبل بإرسال رسول منكم تعرفون نسبه وصدقه وأمانته، يتلو عليكم القرآن الكريم، ويطهركم من كل رجس ودنس، ويعلمكم أحكام القرآن والسنة النبوية، وأحكام الشريعة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعرفونه من علوم الدين والدنيا.

[١٥٢] ثم أمر جل وعلا عبادة بالإكثار من ذكره، فإن مَنْ أكثر من ذكر الله فسوف يجازيه الله بأفضل الجزاء، وهو ذكر الله له في الملأ الأعلىٰ، وقد قيل: من أكثر من ذكر الله أحبه الله وذكره، ثم أمر سبحانه عباده أن يكثروا من شكره علىٰ ما أنعم عليهم من النعم، وحذرهم من إنكار هذه النعم وجحودها.

[١٥٣] ثم أمر جلّ وعلا عباده المؤمنين أن يستعينوا به في جميع أمورهم الدينية والدنيوية بالصبر والصلاة، وأخبر سبحانه وتعالىٰ أنه مع الصابرين المؤمنين يعينهم ويوفقهم ويسددهم.

والاستعانة بالصبر تكون علىٰ ثلاثة أقسام:

* صبر علىٰ طاعة الله.
* وصبر عن معصية الله.
* وصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة.

أما الاستعانة بالصلاة فيكون ذلك بأدائها في أوقاتها المحددة بكامل أركانها وسننها وواجباتها، بخشوع وخضوع، وأن يستحضر المصلي أنه واقف بين يدي ربه، ويعلم أن الصلاة يجب أن تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر.

وفي هذه الآية إثبات معيّة الله الخاصّة بالمؤمنين التي تقتضي محبتُه ومعونته ونصره.

أما معيّة الله العامة المقتضية للعلم والإحاطة والقدرة فهي لجميع الخلق.

وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن
لَّا تَشۡعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ
وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾
ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ
﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ
فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ
وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ
لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ
﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ
وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ
كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ
﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾
وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

[١٥٤] ثم طلب جل وعلا من المؤمنين أن لا يقولوا لمن يُقتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا: بأنهم أموات؛ بل هم أحياء يرزقون؛ حياة خاصّة لا يعلم كيفيتها إلا الله سبحانه وتعالىٰ، ولكنكم لا تُحِسُّون أيها الناس بهذه الحياة.

وفي هذه الآية: أعظم حث علىٰ الجهاد في سبيل الله وملازمة الصبر عليه، وفيها إثبات نعيم البرزخ وعذابه.

[١٥٥] ثم بين جل في علاه أنه سوف يختبركم أيها الناس بشيء من المصائب والشدائد، ومن ذلك: الخوف من الأعداء، والجوع بقلة الغذاء، ونقص الأموال بفقدها أو صعوبة الحصول عليها، وفقدان الأبناء والأحباب بالموت، وهلاك الثمار، ثم أمر سبحانه أن يبشر الصابرين الذين صبروا علىٰ أقدار الله المؤلمة.

[١٥٦] ثم بين سبحانه أن أولئك الذين إذا أصابتهم مصيبة صبروا واحتسبوا وقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

[١٥٧] ثم أخبر سبحانه أن أولئك الصابرين المحتسبين لهم ثناء وتمجيد ورحمة عظيمة من ربهم، وأنهم موفقون للخلاص من الابتلاءات، والهداية إلىٰ طريق الرشاد والسعادة والفلاح.

[١٥٨] يخبر جلّ وعلا أن الصفا والمروة من أعلام دينه الظاهرة التي تعبَّدَ بها عباده؛ فمن أراد الحج أو العمرة فلا إثم عليه أن يطَّوَّف بينهما سبعة أشواط؛ بل يجب عليه فعل ذلك، وذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم بعد أن منَّ الله عليهم بالإسلام، تحرجوا في الطواف بين الصفا والمروة في وجود الأصنام، وخافوا أن يكونوا مشابهين للكفار، فبين سبحانه أنه لا إثم عليهم في ذلك؛ لأنه أمر خارج عن إرادتهم.

وبعد فتح مكة تم ولله الحمد تطهير الكعبة وجميع المسجد الحرام من مظاهر الشرك والكفر.

واعلموا أيها الناس أن من فعل الطاعة مخلصًا بها لله وحده لا شريك له؛ فإن الله شاكر يُثيب علىٰ القليل بالكثير، وهو عليم بمن يستحق الثواب بحسب نيته وإيمانه وتقواه، وعليم بمن لا يستحق.

[١٥٩] يخبر جلّ وعلا أن كل من كتم الحق من أهل الكتاب أو من هذه الأمة بعد أن بينه الله وأظهره للناس في التوراة والإنجيل والقرآن؛ فإن الله يلعنه فيطرده من رحمته، ويلعنه جميع الخلق من أهل السماوات والأرض.

[١٦٠] ثم بين سبحانه أن من تاب وأناب ورجع واعترف بخطئه، وأصلح ما أفسده، وبيّن ما كتمه؛ فأولئك يقبل الله توبتهم ورجوعهم؛ لأنه التواب علىٰ من تاب، والرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

[١٦١] ثم أخبر جلّ وعلا أن الذين جحدوا الإيمان وأصروا علىٰ جحودهم واستمروا علىٰ ذلك حتىٰ ماتوا وهم كفار؛ فأولئك عليهم لعنة الله فيطردهم من رحمته، وتدعوا عليهم الملائكة وجميع الناس باللعنة.

[١٦٢] ثم بين سبحانه إنهم خالدون في نار جهنم لا يخفف عنهم العذاب، ولا يمهلون، أو يُعذرون.

[١٦٣] واعلموا أيها الناس أن إلهكم إله واحد؛ أحدٌ فردٌ صمدٌ، متفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، لا شبيه له ولا مثيل، ولا ند ولا نظير، لا معبود بحق إلا هو، الرحمن الرحيم؛ المتصف بالرحمة العظيمة التي لا يماثلها رحمة أحد من الخلق.

[١٦٤] يخبر جلّ وعلا أن في خلق السماوات بارتفاعها وعظمتها، وفي خلق الأرض وما فيها من الجبال والسهول والبحار، وفي خلق الليل والنهار وتعاقبهما علىٰ الدوام، وفي خلق السفن والمراكب التي تجري في البحار لنفع الناس، وما أنزل الله من السماء من المطر لإحياء الأرض الميتة، وما نشر سبحانه في الأرض من الدواب علىٰ اختلاف أنواعها وأشكالها، وما أنعم الله به من تقلب الرياح والسحاب المسير بين السماء والأرض؛ لأدلة وبراهين عظيمة علىٰ قدرة الله ووحدانيته وعظيم سلطانه ورحمته؛ لكل من كان له عقل يتدبر به، ولمن يفهم أدلته سبحانه وتعالىٰ، ويعرف معناها ومقصودها.

[١٦٥] ثم قال جل في علاه: ومع هذه الأدلة القاطعة الواضحة البينة الدلالة علىٰ عظيم سلطانه وقدرته وحكمته سبحانه وتعالىٰ يوجد من الناس بسبب جهلهم وعنادهم وتكبرهم من يتخذون من دون الله أصنامًا وأوثانًا يجعلونهم شركاء لله، يحبونهم كحب المؤمن لله، وهناك من المسلمين من يلتجئ إلىٰ الصالحين ويعطونهم من المحبة والتعظيم في قبورهم ما لا يليق إلا بالله وحده.

ثم بين سبحانه أن الذين آمنوا بالله أشد وأعظم حبًّا لله من حب الكفار لآلهتهم؛ لأنهم أخلصوا المحبة لله وحده، ولو يعلم الذين أشركوا بالله كيف تكون حالهم يوم يرون العذاب يوم القيامة، ويعلمون أن القدرة لله وحده، وأنه سبحانه شديد العذاب؛ لما اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونها ويتقربون إليها من دونه جل شأنه؛ فهم لا يعذرون بجهلهم في هذا، لأن الدعوة وصلتهم.

[١٦٦] يخبر جلّ وعلا أن أئمة الكفر والضلال يتبرؤون يوم القيامة ممن اتَّبعوهم علىٰ الكفر والشرك بعد أن رأوا العذاب الذي لا طاقة لهم به؛ بل وتنقطع بينهم المودة والصِّلات والمصالح التي ارتبطوا بها في الدنيا، وتظهر بينهم العداوة والبغضاء.

[١٦٧] ثم أخبر جل وعلا أن التابعين يتمنون لو أنهم يُردُّون إلىٰ الدنيا فيتبرأون من متبوعيهم، كما تبرأ المتبوعون منهم، ثم يُقبلوا علىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، ولكن هيهات لقد فات الأمر؛ فكما رأوا شدة العذاب، فإنهم سوف يرون أعمالهم الباطلة حسرات عليهم، ثم يكون مآلهم إلىٰ نار جهنم يدخلونها ولن يخرجوا منها أبدًا.

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ
ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾
إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ
لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ
أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم
بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

[١٦٨] يخاطب جلّ وعلا الناس جميعًا مؤمنهم وكافرهم ويأمرهم أن يأكلوا مما أباحه لهم في الأرض، ويحذرهم أن يسلكوا طريق الشيطان في التحليل والتحريم؛ لأن الشيطان يتدرج في إخراج المؤمن من الصلاح شيئًا فشيئًا، ثم بين سبحانه أن الشيطان عدو ظاهر العداوة لجميع الناس.

[١٦٩] وبين سبحانه أن الشيطان يأمركم أيها الناس بكل الذنوب والمعاصي، وأن تفتروا علىٰ الله الكذب بالتحليل والتحريم بلا علم، وأن تبدلوا وتغيروا في شرع الله كذبًا وافتراءً.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا
عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا
يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ
بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ
وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ
ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ
فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ
أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ
وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

[١٧٠] يخبر جلّ وعلا عن حال الكفار إذا أُمروا باتباع ما أُنزل علىٰ رسول الله ﷺ، ردُّوا قائلين: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فقال سبحانه منكرًا عليهم: أتتبعون آباءكم حتىٰ لو كانوا سفهاء، لا عقل يردعهم، ولا هدي يدلهم علىٰ طريق الحق؟! وقال تعالىٰ في آية أخرىٰ شبيهة بهذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة:١٠٤]، وفي هذا تبكيت ولوم لهم.

[١٧١] ثم أخبر جلّ وعلا أن هؤلاء الكفار عند دعوتهم إلىٰ الهدىٰ والحق والإيمان، مثل الراعي الذي يصيح بغنمه فهي تسمع صوته ولا تفهم مراده، واعلموا أن هؤلاء الكفار صُمٌّ عن سماع الحق، خُرْسٌ عن النطق به، عُمْيٌ عن مشاهدة آيات الله الباهرة في السماوات والأرض؛ وأنهم كمن فقد عقله وصار كالأنعام التي لا عقل لها.

[١٧٢] يأمر جلّ وعلا عباده المؤمنين أن يأكلوا من كل ما استلذ وطاب من الأطعمة التي رزقهم وأحلّها لهم، وعليهم أن يشكروا هذه النعم إنْ كانوا يعبدون الله بحق.

[١٧٣] واعلموا أيها المؤمنون إنما حرَّم الله عليكم أكل ما يضركم؛ كالميتة التي ماتت من غير تذكية شرعية، والدم المسفوح، أما الدم الذي يبقىٰ في العروق واللحم والعظام والكبد والقلب ونحو ذلك فلا شيء فيه، وكذلك مما حرم الله عليكم لحمُ الخنزير، وكل ما ذُبح لغير الله؛ كالذي يُذبح للأصنام وللأضرحة وغيرها، ولكن من ألجأته الضرورة إلىٰ أكل شيء من هذه المحرمات فإن الله أباح له ذلك، وأنه لا إثم عليه؛ بشرط أن يأكل بقدر ما يحفظ حياته؛ فلا يأكل من غير ضرورة، ولا يتجاوز في أكله قدر الضرورة، ثم ختم سبحانه الآية مبينًا أنه كثير المغفرة لعباده المؤمنين، وأنه رحيم بهم، ومن رحمته أنه أباح لهم ما حُرم عليهم إذا ألجأتهم الضرورة لذلك.

[١٧٤] يخبر جل وعلا أن الذين يخفون ما أنزل الله من الحق ويأخذون مقابل ذلك ثمنًا قليلًا؛ سوف يجعل الله في بطونهم نارًا بسبب ما أكلوه من المال الحرام، ولن يكلمهم سبحانه يوم القيامة بسبب غضبه وسخطه عليهم، ولن يطهرهم من دنس الكفر والمعاصي، ولهم يوم القيامة عذاب أليم موجع لا يطاق.

ولا شك أن الثمن الذي يؤخذ مقابل كتمان آيات الله أو تحريفها، فإنه مهما كان كثيرًا فهو قليل بالنسبة لعقوبة الله، وبالنسبة لما أعده سبحانه للمتقين.

[١٧٥] ثم أخبر جلّ وعلا أن أولئك الكفار الذين كتموا آيات الله قد اختاروا الضلالة علىٰ الهدىٰ، واختاروا العذاب في النار علىٰ مغفرة العزيز الغفار؛ فما أشد جرأتهم علىٰ النار التي لا تطاق لما فيها من العذاب الأليم. والاشتراء: هو بذل الثمن لامتلاك السلعة المطلوبة، ثم تُوُسِّعَ فيه فاستعمل في الرغبة عن الشيء طمعًا في غيره.

[١٧٦] ثم بين جلّ وعلا أن هذا العذاب الذي استحقوه بسبب كفرهم بما أنزل الله علىٰ رُسُلِهِ من الحق، وبين أن الذين اختلفوا في الكتاب فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه لفي محادّة لله، ونزاع بينهم، وبُعْدٍ عن الرشد والصواب.

[١٧٧] واعلموا أيها الناس أن الخير ليس محصورًا في توجه الإنسان في الصلاة إلىٰ جهة المشرق والمغرب فقط، ولكنْ هناك أنواعٌ من الخير يجب الحرص عليها، ومن ذلك: الإيمان بالله، باتباع أوامره واجتناب نواهيه، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالملائكة، والإيمان بجميع الكتب السماوية، والإيمان بجميع الرسل دون تفريق بينهم، وكذلك الخير في التصدق بالمال - مع شدة حبّه له - علىٰ ذوي القربىٰ، وعلىٰ اليتامىٰ المحتاجين، وعلىٰ المساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم ويسد حاجتهم، وعلىٰ ابن السبيل الذي انقطعت به السبل، وعلىٰ السائلين الذين اضطروا للسؤال لشدة حاجتهم، وفي تحرير الرقيق والأسرىٰ، وكذلك الخير في إقامة الصلاة، وأداء الزكاة، والوفاء بالعهود والمواثيق، والصبر علىٰ الفقر والمرض، والصبر في شدة القتال؛ ثم بين سبحانه أن كل من اتصف بهذه الصفات فقد صدق في إيمانه وإخلاصه، وأنه من أصحاب التقوىٰ حقًّا؛ لأنهم اتقوا عذاب الله بالبعد عن الذنوب والمعاصي.

وقوله: ﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾، جاءت مرفوعة للاختصاص وبيان أهمية الوفاء بالعهود.

[١٧٨] وهذا نداء من الله لعباده المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه بين فيه أنه فرض عليهم القصاص من كل من وقع في جريمة القتل عمدًا، وذلك بقتله؛ ثم فصَّل سبحانه فأخبر أن الحر يقتل بالحر، والعبد يقتل بالعبد، والأنثىٰ تقتل بالأنثىٰ، ثم بين أن من عَفَىٰ وأسقط حقه في القصاص ورضي بالدية؛ فعلىٰ صاحب الحق أن يقبل بالدية من غير أن يشق علىٰ خصمه، وعلىٰ القاتل أن يدفع الدية من غير تسويف أو مماطلة، ولا شك أن إسقاط القصاص والقبول بالدية هو تخفيف ورحمة من ربكم؛ فمن اعتدىٰ بعد ذلك وقام بقتل القاتل بعد العفو عنه وأخذ الدية؛ فله من الله عذاب أليم شديد موجع، وذلك بالاقتصاص منه في الدنيا، والعذاب في النار في الآخرة.

قال المفسرون: المقصود من هذه الآية: منع التعدي علىٰ غير الجاني، وتفيد أيضًا: شرعية القصاص الذي يجب أن ينفذه الحكام وأمراء المؤمنين.

وقد ورد أن الإمام الثوري وأبي حنيفة يقولان بقتل الحر بالعبد، والمؤمن بالكافر، وأن التفاضل في النفس غير معتبر بدليل قتل الجماعة بالواحد. وأما مالك والشافعي فلا يقولان بقتل الحر بالعبد، ولا المؤمن بالكافر، وهو قول الجمهور.

[١٧٩] واعلموا ياأصحاب العقول السليمة والأفكار القويمة أن الله سبحانه وتعالىٰ شرع لكم القصاص لكي تُحقن الدماء وتتحقق الحياة الآمنة، ولكي تتقون الله فتكفوا عن البغي والعدوان والظلم، ولا شك أن من فكر في اقتراف جريمة القتل وعرف أنه سيقتل جزاءً، عَدَلَ عن هذه الجريمة؛ فكان في تركه القتل حياة للطرفين.

۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ
وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ
وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (١٧٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ
عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَىۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ
بِٱلْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ
إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ
بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى
ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ
أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ
بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ
فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)

[١٨٠] يخبر جل وعلا أنه فرض علىٰ كل مؤمن منَّ الله عليه بمال وعليه التزامات وديون وشعر بقرب الأجل وعلامات الموت؛ أن يكتب وصيته للوالدين والأقربين بالعدل، بشرط أن لا تزيد الوصية لهم عن الثلث، ثم أخبر سبحانه أن هذه الوصية حق واجب علىٰ المتقين الذين يخافون الله في السر والعلن، أما إذا لم يكن عليه ديون أو التزامات فإنه يستحب له الوصية وليست فرضًا.

وقد ورد في هذه الآية قولان:

القول الأول: أنها نُسخت بآية المواريث.

والقول الثاني: وهو الأحسن، أنها للوالدين المحجوبين الذين لا يستحقان من الفروض الإرثية شيئًا؛ كالجد المحجوب بأب الميت، والجدة المحجوبة بالأم المباشرة، ونحوهم من الأقارب الذين ليس لهم فروض إرثية؛ فلا يحرمون من الوصية إذا أوصىٰ لهم الوارث.

[١٨١] ثم أخبر سبحانه أن من غَيَّر هذه الوصية أو حرَّف فيها أو كتمها؛ فإن إثمها علىٰ من ارتكب ذلك؛ واعلموا أيها الناس أن الله سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم؛ فهو يسمع ويرىٰ كل ما تم في هذه الوصية، ويعلم عمل الموصي ونيته.

فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ
عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٨٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ
عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ
مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى
ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا
فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
١٨٤ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ
وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ
ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ
مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا
هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٨٥ وَإِذَا سَأَلَكَ
عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦

[١٨٢] ثم أخبر جلّ وعلا أن من تخوف من ميل الموصي في الوصية علىٰ سبيل الخطأ أو العمد فيضر بالورثة؛ كأن يوصي بحرمان بعض الورثة، أو يوصي بأكثر من الثلث، فإنه لا يجوز تنفيذ مثل هذه الوصية، وعلىٰ من حضر الوصية أن ينصح الموصي بأن يَعْدِلَ في الوصية؛ فإذا لم يرضَ فعليه أن يسعىٰ في الإصلاح بين الورثة بأن يغيروا الوصية لتصبح كما شرع الله؛ وليس علىٰ المصلح ذنب بهذا التغيير؛ لأن المقصود من هذا التغيير هو الوصول إلىٰ الحق، والله عظيم المغفرة يغفر لمن يشاء من عباده، رحيم بهم وقد وسعت رحمته كل شيء.

[١٨٣] وهذا نداء من المولىٰ عز وجل لعباده الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه، بيّن فيه أنه فرض عليهم الصيام كما فُرض علىٰ الذين من قبلهم؛ لعلهم بهذا الصوم أن يكونوا من المتقين الذين يتقون الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

ومعلوم أن صوم رمضان يجب برؤية هلال رمضان، واختلف أهل العلم: إذا رؤي الهلال في بلد فهل يجب الصوم علىٰ جميع أهل البلدان؟ أم لكل أهل بلد رؤيته؟

قال الإمام مالك وأبو حنيفة وأحمد: إذا رؤي الهلال في بلد وجب الصوم علىٰ كل المسلمين.

أما الشافعي فقد فصل حيث قال: إذا رؤي الهلال في بلد لزم الصوم أهل البلاد القريبة دون البعيدة، وأما البلاد البعيدة فلكل بلد رؤيته، أي: حسب تعدد المطالع، وعمل المسلمين اليوم علىٰ هذا القول.

[١٨٤] ثم أخبر جلّ وعلا أنَّهُ فرض عليكم أيها الناس الصيام أيامًا معدودة؛ فمن كان منكم مريضًا لا يطيق الصيام، أو كان مسافرًا يشق عليه الصيام؛ فقد رخص الله له في الفطر، وعليه أن يقضي الأيام التي أفطرها بعد رمضان، أما الذين يشق عليهم الصيام ولا يقدرون عليه؛ كالشيخ الكبير والمريض الذي لا يُرجىٰ شفاؤه؛ فعليهم فدية عن كل يوم يفطرونه، وهي إطعام مسكين، ومن زاد في الفدية فهو فضل وخير له، ثم بين سبحانه أن الصيام مع تحمل المشقة أفضل لكم من الفطر وإعطاء الفدية، إن كنتم تعلمون أيها الناس فضل الصيام ومنافعه وفوائده.

قال أكثر المفسرين: الرخصة الواردة في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، منسوخة بالآية التي بعدها، وهي قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

وقال آخرون: إنها نسخت بالنسبة للقادر، أما الشيخ الكبير العاجز، والعجوز الكبيرة العاجزة، أو المصاب بمرض لا يُرجىٰ زواله، وقد قرر الطبيب المختص أن الصوم يضره، ومن كانت ظروفه شبيهة بهذه الحالات؛ فإنها غير منسوخة في حقِّه، وهذا هو الذي عليه عمل المسلمين اليوم.

[١٨٥] ثم أخبر جلّ وعلا أن شهر رمضان هو الشهر الذي أُنزل فيه القرآن الكريم، وهذا القرآن جعل الله فيه الهدىٰ والنور للناس، وهو كتاب واضح في أحكامه ودلائله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد فرق الله به بين الهدىٰ والضلال، والحق والباطل؛ ولذا يجب علىٰ من حضر منكم شهر رمضان فعليه أن يصومه، وأما من كان مريضًا لا يطيق الصيام، أو كان مسافرًا؛ فيرخص له بالفطر، ولكن عليه أن يقضي ما أفطره بعد انتهاء الشهر؛ واعلموا أيها الناس أن الله يريد لكم اليسر والتسهيل، ولا يريد لكم المشقة والعسر، وعليكم أن تتموا صيام الشهر بقضاء ما أفطرتم، وأن تختموا شهركم بتكبير الله تعظيمًا له علىٰ أن هداكم ووفقكم ويسر أموركم، وأن تشكروه سبحانه علىٰ نعمه التي أنعم بها عليكم، ومن ذلك إخراج زكاة الفطر ودفعها لمستحقيها فهذا من شكر الله علىٰ إتمام صيام شهر رمضان.

[١٨٦] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ إذا سأله الناس هل هو قريب أم بعيد؟ أن يجيبهم بأنه قريب من عباده؛ وأنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه؛ مع أنه فوق عرشه، وعليهم إذا أرادوا إجابة دعائهم أن يستجيبوا لأوامر الله، وأن يثبتوا علىٰ الإيمان الصحيح؛ لعلهم يهتدوا إلىٰ طريق الفلاح والإيمان والعمل الصالح.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ
لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ
تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ
بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ
حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ
ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ
عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ
أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ
لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ
وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ
مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ
يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

[١٨٧] يخبر جل وعلا أنه أباح للناس في ليالي رمضان جماع نسائهم؛ لأنهن ستر وحفظ لهم، وهم ستر وحفظ لهن؛ وذلك أنه كان في أول فرض الصيام يحرم الأكل والشرب والجماع في الليل بعد النوم؛ فشق ذلك عليهم، وكان بعضهم يحدث نفسه بالجماع وبالأكل والشرب وربما وقع فيه، ورحمة بكم وشفقة عليكم أيها الناس فإن الله سبحانه تاب عليكم وعفا عمَّا وقعتم فيه من خطأ، ورخَّص لكم أن تجامعوا نساءكم في ليالي رمضان، ولتكن نيتكم من هذا الجماع هو التمتع بالنساء للإعفاف والحصول علىٰ الولد، واعلموا أيها الناس أن الله أباح لكم الجماع والأكل والشرب منذ غروب الشمس حتىٰ يظهر ضياء الصباح من سواد الليل؛ فإذا طلع الصبح فيجب عليكم أن تمسكوا عن الجماع والأكل والشرب، وعليكم أن تستمروا في صيامكم حتىٰ غروب الشمس، ثم نهىٰ سبحانه أن يجامع أحدكم زوجته ليلًا وهو معتكف في المسجد؛ لأن ذلك يفسد الاعتكاف، ثم أخبر سبحانه أن هذه الأحكام التي بينها ووضحها هي حدوده التي حدّها لكم فلا تتجاوزوها وتنتهكوها، وبمثل هذا التوضيح والتبيين الذي بينه الله لكم في هذه الأحكام، يُبيِّن سبحانه أدلته وحججه للناس لكي يحفظوا أنفسهم من الوقوع في الآثام والمعاصي، وأن يحذروا عقاب الله وعذابه الأليم.

[١٨٨] واحذروا أيها الناس أن تتعدوا في معاملاتكم الشرعية فيأكل بعضكم مال بعض بالباطل بكل أنواعه؛ كالربا والسرقة والنصب والاحتيال وغير ذلك، ولا تقدموا للحكام رشوة أو حججًا باطلة تكون سببًا في أكل أموال بعض الناس بالباطل، وأنتم تعلمون حرمة ذلك، وتعلمون أنكم علىٰ باطل، وجاء التعبير بالأكل لأن الأموال المقصود منها الأكل والاستمتاع.

[١٨٩] ثم بين سبحانه أن الصحابة رضي الله عنهم سألوا النبي ﷺ عن الحكمة من هذه الأهلة، فأمره أن يقول لهم: لقد جعل الله هذه الأهلة علامات للناس يعرفون بها أوقات عباداتهم كالصيام والحج والعمرة، ويعرفون أمورهم التي تحتاج إلىٰ توقيت؛ كعدة الوفاة وعدة المطلقة وغير ذلك، واعلموا أيها الناس أنه ليس من الخير أن تأتوا البيوت من ظهورها كما كان أهل الجاهلية يفعلون حين يحرمون بالحج والعمرة، ولكن الخير كل الخير من اتقىٰ الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر، وعليكم أن تدخلوا البيوت من أبوابها، واتقوا الله في كل أموركم لعلكم تفوزون بكل ما تحبون من خيري الدنيا والآخرة.

وقد روي أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غَنْم سألا النبي ﷺ عن صيرورة الهلال، يبدأ هلالًا، ثم بدرًا، ثم يعود هلالًا، وهكذا؛ فنزلت هذه الآية إجابة ولكن ليس لما سألوا عنه، وإنما لما هو أهم وهو ما يترتب علىٰ ذلك من أمر العبادات.

وهكذا ينبغي للعالم والأب إذا سُئل عن أشياء ولو كانت بسيطة وهامشية؛ فعليه أن يوضح للسائل المراد والمنافع والفوائد المهمة.

[١٩٠] يأمر جلّ وعلا المؤمنين أن يجاهدوا في سبيل الله لنصرة دين الله، وأن يقاتلوا الذين يقاتلونهم من الكفار، ولا يتجاوزوا في قتل من ليس من أهل القتل، كقتل الأطفال والنساء والشيوخ وغيرهم؛ فإن الله لا يحب الظالمين الذين يتجاوزون حدوده.

وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ
أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ
فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ
ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ
بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ
عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ
وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ
فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ
ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ
مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ
فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ
وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي
ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

[١٩١] يأمر جلّ وعلا المسلمين بقتال الكفار الذين سبق أن قاتلوهم وأخرجوهم من بلادهم وهي مكة، فعليكم أيها الناس أن تقتلوهم حيث وجدتموهم وأمسكتم بهم؛ وأن تخرجوهم وتشردوهم من حيث أخرجوكم؛ واعلموا أن الفتنة التي يدبرونها لتحويل المسلمين إلىٰ الكفر والشرك أشدُّ وأعظم من قتلكم إياهم، ثم استثنىٰ سبحانه من ذلك قتالهم عند المسجد الحرام؛ فإن ذلك لا يجوز، إلا إذا ابتدأ الكفار بالقتال فإنهم يُقتَلون؛ لأنهم انتهكوا حرمة الحرم، ثم بين سبحانه أن هذا هو جزاء المجرمين الباغين.

ولاحظ أن الله جل في علاه قال: ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾ ولم يقل: (فقاتلوهم)؛ لأنهم ارتكبوا جرمين:

الأول: البغي.

والثاني: انتهاك حرمة بيت الله الحرام.

[١٩٢] ثم أمر سبحانه المسلمين بالتوقف عن قتال الكفار إذا توقفوا عن قتالكم، وتابوا ودخلوا في دين الله؛ وفي هذه الحال عليكم أن تعفوا وتصفحوا عنهم؛ واعلموا أن الله غفور لعبادة التائبين، رحيم بهم، وأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله.

[١٩٣] ثم أمر جلّ وعلا المسلمين أن يقاتلوا الكفار حتىٰ تنكسر شوكتهم وتنهار قوتهم، وحتىٰ لا يفتنوا المسلمين عن دينهم، ويصبح دين الله هو الظاهر علىٰ سائر الأديان؛ فإن توقفوا عن قتالكم فلا تعتدوا عليهم، ومن اعتدىٰ بعد ذلك فقاتلوا المعتدي؛ لأنه من الظالمين المتجاوزين لحدود الله.

[١٩٤] ثم بين سبحانه أنه في حال قاتلكم المشركون في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام، مجازاة لهم علىٰ عدوانهم؛ لأن من ارتكب محرمًا عوقب بمثله؛ فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه مِثْلًا بمثل وسواء بسواء، واتقوا الله فلا تتجاوزوا في الاعتداء والعقوبة؛ واعلموا أن الله مع المتقين يعينهم وينصرهم ويؤيدهم.

[١٩٥] يأمر جلّ وعلا بإنفاق المال في سبيل الله لنصرة دينه وإعلاء كلمته، فإن من ترك الجهاد في سبيل الله أو الإنفاق فيه، فقد عرّض نفسه للهلاك، وأحسنوا في أعمالكم واجعلوها خالصة لوجهه الكريم؛ فإن الله يحب المحسنين.

[١٩٦] ثم أمر جل وعلا الذين أحرموا بالحج والعمرة أن يُتِمُّوا ما أحرموا به كما هو مشروع ولو كان نفلًا؛ فإن مُنعوا أو حُجزوا عن الحرم بعد الإحرام؛ بسبب مرضٍ، أو ذهاب نفقةٍ، أو أي مانع قهريٍ؛ فحينئذ عليهم إذا أرادوا أن يتحللوا من الإحرام، أن يذبحوا ما تيسر من الهدي، وعليهم أن لا يحلقوا رؤوسهم حتىٰ ينحروا هديهم في الموضع الذي أُحصروا فيه، أما غير المحصَرِ فلا ينحر هديه إلا في الحرم، أما من كان مريضًا، أو كان به أذًىٰ في رأسه واضطر أن يحلق رأسه وهو مُحرم فله أن يحلق، ولكن يجب عليه في هذه الحال فدية، وهي: إما أن يصوم ثلاثة أيام، أو يتصدق علىٰ ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام، أو يذبح شاة توزع علىٰ فقراء الحرم، فإذا كنتم أيها الناس آمنين وتمكنتم من الوصول إلىٰ الحرم في أمن وأمان وصحة وعافية، ثم أديتم العمرة في أشهر الحج، ثم أحرمتم بالحج في نفس العام فعليكم ذبح ما تيسر من الهدي؛ فمن لم يتمكن من شراء الهدي إما لفقد مال أو لعدم الحصول علىٰ الهدي ونحو ذلك؛ فعليه أن يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة أيام إذا رجع إلىٰ بلده، فهذه عشرة أيام يجب صيامها، واعلموا أن هذا الهدي وهذا الصيام لمن لم يكن من سكان الحرم؛ لأن سكان الحرم ليس عليهم هدي.

ثم ختم سبحانه الآية بأمر الناس بتقوىٰ الله في جميع أمورهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك العمل بكل هذه الأحكام وغيرها التي شرعها الله لهم، واعلموا أن من حَادَ عن التقوىٰ وارتكب المحرمات فإن الله شديد العقاب.

وقد اختلف أهل العلم: هل العمرة سنة أو واجبة؟ فعند أبي حنيفة: أنها سنة، وعند أحمد والشافعي ومالك: أنها واجبة كالحج في العمر مرة واحدة علىٰ المستطيع.

[١٩٧] يخبر جلّ وعلا أن الحج أشهر معلومات وهن: شوال وذو القَعْدَةِ وعشر من ذي الحجة، فمن أحرم فيها بالحج لزمه ذلك، وحينئذٍ يحرم عليه الرفث وهو الجماع ومقدماته، ويحرم عليه تجاوز أحكام الشرع؛ كما يحرم ذلك عليه في كل الشهور، ويحرم عليه أيضًا الجدال والمخاصمة، واعلموا أن كل ما تفعلوه من الأعمال الصالحة والطاعات والقربات فإن الله عليم بها، ثم بين سبحانه أن من عزم علىٰ الحج فعليه التزود بما يحتاجه من قوت ورفقة صالحة، واعلموا أن الزاد الأهم هو التقوىٰ؛ فإنه أعظم زاد؛ لأنه يوصل إلىٰ رضوان الله، وإلىٰ الجنة دار القرار، ثم أمر سبحانه أصحاب العقول السليمة أن يتقوا ربهم ويخافوا عذابه ويخشوا عقابه.

[١٩٨] ثم أخبر جل وعلا أنه ليس علىٰ الحجاج حرج في البيع والشراء في موسم الحج، مع عدم الإخلال بالشعائر المطلوبة؛ فإذا خرجتم من عرفات متوجهين إلىٰ مزدلفة فاذكروا الله عند المشعر الحرام، وأكثروا من ذكره شكرًا علىٰ هدايته لكم إلىٰ الصراط المستقيم؛ وتذكروا حالكم قبل الهداية حيث كنتم في شر وضلال عظيم وقد أنجاكم الله منه.

[١٩٩] ثم أمر سبحانه وتعالىٰ الحجاج أن يفيضوا من مزدلفة صباح العيد متوجهين إلىٰ منىٰ، وعليهم حال الإفاضة بكثرة الاستغفار؛ فإن الله غفور لعباده المستغفرين، رحيم بهم.

[٢٠٠] ثم وجه المولىٰ عز وجل الحجاج إذا أتموا مناسك الحج فعليهم أن يذكروا الله ذكرًا كثيرًا كما كانوا يفتخرون بآبائهم قبل الإسلام وذلك في منىٰ؛ بل عليهم ان يذكروا الله أعظم من ذلك؛ واعلموا أيها الناس أن منكم من يكون همه وغاية مراده الدنيا فقط، فهؤلاء ليس لهم في الآخرة حظ ولا نصيب.

[٢٠١] واعلموا أن منكم من يدعو ربه بخيري الدنيا والآخرة؛ فيدعو الله أن يرزقه المال والصحة والعلم ونحو ذلك، ويسأل الله أن يدخله الجنة ويَصرِفَهُ عن عذاب النار. وقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، دعاء

ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا
رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ
خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ
وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ
أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ
عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ
وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ
لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ
ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩
فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ
ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ
رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ
٢٠٠ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ
وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ
لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢

عظيم جامع، وقد كان ﷺ يردده كثيرًا بين الركنين أثناء طوافه بالكعبة المشرفة.

[٢٠٢] واعلموا أيها الناس أن أولئك الذين سألوا الله خيري الدنيا والآخرة لهم نصيب وحظ وافر من الأجر والثواب العظيم بسبب ما كسبوه من الأعمال الصالحة، والله سريع الحساب لعباده علىٰ كثرتهم؛ فإنه سيجازيهم في وقت واحد لا يتصوره أحد، ولا يشغله شأن عن شأن.

۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي
يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ
ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ
﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾
وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ
وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ
أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ
ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ
مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ
ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ
مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ
وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

[٢٠٣] يأمر جلّ وعلا حجاج بيت الله بكثرة ذكره في أيام الحج لأنها أيام معدودات قليلة، وهي يوم عيد الأضحىٰ والثلاثة الأيام التي بعده والتي تسمىٰ بأيام التشريق، وهي اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة، ثم بين سبحانه أن من أراد التعجل وخرج من منىٰ قبل غروب شمسِ اليوم الثاني عشر بعد رمي الجمار فلا حرج ولا إثم عليه، ومن أراد التأخر، أي: بات في منىٰ حتىٰ يرمي جمار اليوم الثالث عشر من ذي الحجة فلا حرج ولا إثم عليه، وذلك لمن اتقىٰ الله في حجه وأدىٰ المناسك كما شُرعت؛ وعليكم أيها الناس بتقوىٰ الله وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، واعلموا أنكم سوف تحشرون يوم القيامة إليه، وسيجازيكم علىٰ أعمالكم؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[٢٠٤] يخبر جلّ وعلا أن بعض المنافقين إذا تكلم أُعجب السامع بكلامه، لفصاحته وبلاغته، بل يُخبر أن الله يعلم ويشهد علىٰ ما في قلبه وأنه مطابق لما يقول، وهو في الحقيقة كاذب في أقواله واعتقاداته؛ بل إنه شديد العداوة لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين.

[٢٠٥] ثم بين جل وعلا أن هذا الذي أعجبكم أيها الناس قوله فإنه إذا خرج من عندكم سعىٰ في الأرض فسادًا بنشر الكفر والذنوب المعاصي وَزَرْعِ الفتنة بين الناس؛ فتهلك بسبب ذلك الزروع والثمار والأنعامَ، وفي هذا دليل علىٰ أن الذنوب والمعاصي سبب في هلاك الزروع والثمار والحيوانات، واعلموا أن الله لا يحب الفساد، ولا يحب المفسدين.

[٢٠٦] ثم أخبر جل وعلا أن هذا المنافق إذا نُصح وأُمر بتقوىٰ الله تكبَّر وعاند وأخذته العزة بالإثم، وهذا ليس له إلا نار جهنم وبئس المصير والمستقر والمسكن.

[٢٠٧] ثم بين جل وعلا أن هناك صنفًا من الناس موفقون لأنهم باعوا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله بالجهاد في سبيله، والله رؤوف بالعباد ومن رأفته بهم توفيقهم لمرضاته.

[٢٠٨] يأمر جل وعلا عباده المؤمنين أن يقبلوا بجميع شرائع الإسلام وأحكامه، ولا يتركوا منها شيئًا، ولا يتبعوا طرق الشيطان الخبيثة؛ فإنه لهم عدوٌّ مبين ظاهر العداوة. وقوله: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: تفيد أن الشيطان من خبثه يتدرج مع الإنسان لإيقاعه في الكفر والذنوب والمعاصي، وزرع الفتنة بين الناس، والتشكيك في دين الله؛ بحيث يأخذه خطوة خطوة حتىٰ يحير من يصغىٰ إليه.

[٢٠٩] ثم حذر سبحانه الناس إذا ضلوا عن طريق الحق بعد أن ظهرت لهم الدلائل والبراهين؛ وعليهم أن يعلموا أن الله عزيز ينتقم ممن عصاه، وحكيم في أمره ونهيه؛ فلا يعاقب من ليس من أهل العقاب.

[٢١٠] ثم هدد سبحانه الذين رفضوا الدخول في دين الله بعد أن أقيمت عليهم الحجج والبراهين، فقال سبحانه: ما ينتظر هؤلاء المفسدون في الأرض المُتَّبِعون لخطوات الشيطان إلا أن يأتيهم الله عز وجل يوم القيامة يوم الجزاء علىٰ الأعمال في ظُلَل من السحاب علىٰ الوجه اللائق به سبحانه وتعالىٰ؛ ليفصل بين العبَّاد بعدله، وقد قُضي الأمر وفُرغ منه وهو إهلاكهم، واعلموا أيها الناس أنه إليه وحده جلّ في علاه تعود أمور الخلائق.

وفي قوله: ﴿أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾، فإن أغلب الفرق الإسلامية كالأشاعرة والمعتزلة وغيرهم يؤولون بعض الصفات، ومن ذلك (إتيان الله)؛ فيقولون: يأتي أمره.

أما أهل السنة والجماعة فيثبتونها كما أثبتها الله لنفسه من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تشبيه، ولا تكييف، ويقولون: إن الله يأتي لكنه إتيان يليق بجلاله وعظمته لا نعرف كيفيته، كما لا نعرف كيفية ذاته ولا نعرف كيفية مجيئه.

سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٢١١ زُيِّنَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۘ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ
٢١٢ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ
فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٢١٣ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا
يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ
وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ
ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ٢١٤ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ
مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ
وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢١٥

[٢١١] ثم أمر سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يسأل بني إسرائيل: كم أعطاهم الله من الآيات البينات الواضحات؟ فكذبوا وأعرضوا وبدلوا ولم يشكروا نعم الله عليهم، ولذا فإن من بدل دين الله وكفر به من بعد أن جاءته البينات والأدلة الواضحات؛ فقد استحق العذاب الأليم والعقاب الشديد.

[٢١٢] يخبر جلّ وعلا أن الذين جحدوا دين الله زُيِّنَتْ لهم الحياة الدنيا فأحبوها وقدموها علىٰ الآخرة، وسَخِرُوا من المؤمنين، وما عَلِمُوا أن هؤلاء المؤمنين الذين يخشون ربهم قد جعلهم الله في أعلىٰ المنازل والدرجات في الجنة، وأما أنتم أيها الكفار المستهزؤون بالله ورسوله وآياته والمؤمنين فقد جعلكم الله في أسفل دركات النار، واعلموا أن الله يرزق من يشاء من خلقه بغير حساب.

[٢١٣] ويخبر جل وعلا أن الناس كانوا متفقين علىٰ الإيمان؛ وكانوا فرقة واحدة من آدم إلىٰ نوح عليهم السلام، عشرة قرون وهم علىٰ ذلك كما قال ابن عباس رضي الله عنه، ثم في عهد نوح اختلفوا، وهكذا في القرون التي بعده، فأرسل الله الرسل تباعًا مبشِّرين ومنذرين لئلّا يكون للناس علىٰ الله حجَّة، وأنزل معهم الكتب التي فيها بيان أمور دينهم ودنياهم ليتحاكم إليها الناس فيما اختلفوا فيه، ولكن خالف اليهود والنصارىٰ في نبوة محمد ﷺ، وخالفوا في القرآن بعد أن جاءتهم الأدلة الصحيحة الواضحة التي تدل علىٰ صدقه؛ حسدًا وبغيًا من عند أنفسهم، وكذلك خالف في نبوة محمد ﷺ جماعات كثيرة غير اليهود والنصارىٰ، كالكفار بجميع معتقداتهم، والعلمانيين، والدهريين، وغيرهم كثير، ثم وفَّق الله الذين آمنوا بالله ورسوله إلىٰ التمسك بالحق والنور والإيمان الذي خالف فيه أهل الكتاب وغيرهم، والله سبحانه يوفق ويهدي من يشاء إلىٰ طريقه المستقيم الموصل إلىٰ جنة رب العالمين.

[٢١٤] هذا خطاب للنبي ﷺ وأتباعه تشجيعًا وحثًّا لهم علىٰ الثبات والمصابرة ليحصلوا علىٰ النصر، فيقول جل وعلا: هل تظنون أيها المؤمنون بأنكم ستدخلون الجنة بدون أن تُمْتَحَنُوا وَتُبْتَلَوْا، كما حدث لمن قبلكم من المؤمنين الذين أصابهم الفقر والأمراض والخوف والرعب وزلزلت قلوبهم بكل أنواع المخاوف وهددوا بالقتل والتشريد؛ حتىٰ قال الرسول وأتباعه الذين معه: متىٰ يأتي نصر الله؟ فاعلموا أن نصر الله قريب من عباده المؤمنين، وأن فَرَجَهُ آت؛ فلا تيأسوا أيها المؤمنون من نصر الله.

[٢١٥] يخبر سبحانه وتعالىٰ أن أصحاب النبي ﷺ سألوا نبيهم: بماذا يتصدقون؟ وعلىٰ من يتصدقون؟ فأمره جل وعلا أن يقول لهم: تصدقوا بما تيسر عندكم من الخير والمال الحلال، واجعلوا صدقتكم للوالدين أولًا فهم أولىٰ الناس، بل إنه يجب النفقة عليهم إذا كانوا فقراء، وكذلك للأقربين من أهلكم وأرحامكم، ثم اليتامىٰ الذين مات آباؤهم وهم دون سن البلوغ، ثم المساكين، ثم ابن السبيل الذي انقطعت به السبل، واعلموا أن كل خير تفعلوه قليلًا كان أو كثيرًا فإن الله يعلمه، وهو محفوظ لكم عنده وسوف يجازيكم عليه علىٰ حسب نيتكم وإخلاصكم.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا
شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ
لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ
الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ
اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ
أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ
يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن
يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ
حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ
اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ
قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ
مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

[٢١٦] يخبر جلّ وعلا رسوله وعباده المؤمنين أنه فرض عليهم قتال الكفار والمشركين وهو يعلم أن القتال مكروه لهم لمشقته وكثرة مخاطره، ثم أخبر أن ما يكرهونه قد يكون فيه الخير، وما يحبونه قد يكون فيه الشر، والله يعلم ما فيه صلاحكم وفلاحكم أيها الناس وأنتم لا تعلمون، فيجب عليكم التسليم لله تعالىٰ في كل ما شرعه لكم، والمبادرة في تنفيذه.

[٢١٧] ثم أخبر سبحانه أن المشركين سألوا النبي ﷺ عن الشهر الحرام، هل يجوز القتال فيه؟ وكان سؤالهم عن الشهور الأربعة التي حُرِّم فيها القتال، والمذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة:٣٦]، فأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أيها الكفار أن القتال وسفك الدماء في الشهر الحرام محرم وإثمه عظيم، ولكن مَنْعُ الناس من الإسلام، ودعوتهم للكفر بالله، ومنعهم من دخول المسجد الحرام، وإخراج النبي وأصحابه منه؛ كل هذا أعظم إثمًا عند الله من القتال في الشهر الحرام، واعلموا أن شرك المشركين في الحرم وإرغام المسلمين علىٰ ترك دينهم أعظم عند الله إثمًا من انتهاك حرمة الأشهر الحرم. ثم اعلموا أيها المسلمون أن الكفار سوف يستمرون في قتالكم حتىٰ يردوكم عن دينكم إلىٰ الكفر إن استطاعوا إلىٰ ذلك سبيلًا؛ فمن يطعهم ويرتد عن دينه ويموت علىٰ الكفر فأولئك ذهبت أعمالهم هباءً في الدنيا والآخرة، وصاروا من أصحاب النار خالدين مخلدين فيها.

وهذه الأربعة أشهر جعلها الله رحمة لعباده؛ حيث إن الثارات والغارات كانت من عادات القبائل والعشائر طوال أيام السنة، ففرض الله هذه الأشهر الحرم رحمة بعباده لكي يضعوا فيها السلاح ويلتزموا بالسلام والأمان، ويتركوا هجوم بعضهم علىٰ بعض، واستمر هذا في أول الإسلام، ثم دانت أكثر الأمم بالإسلام، وأصبح الذي يحكم بالدماء هم القضاة الشرعيون، وأصبحت السنة كلها أشهر حُرُم لا يَقْتَصُّ أحد لنفسه؛ لأن الحكم في ذلك يعود لشرع الله وللحكام القائمين به.

[٢١٨] ثم أخبر جل وعلا أن الذين آمنوا بالله ورسوله، والذين تركوا بلادهم وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، أولئك يطمعون في رحمة الله التي تُدْخِلهم الجنة، والله عظيم المغفرة، واسع الرحمة.

[٢١٩] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أنهم سألوا النبي ﷺ عن حكم شرب الخمر وشرائه وبيعه، وعن حكم الميسر وهو القمار بكل أنواعه؛ والخمر: هو كل ما خامر العقل، وهو السُّكْر، والقمار: هو جميع المغالبات التي تتم بعوض بين الطرفين؛ فأمره جل وعلا أن يقول لهم: اعلموا أيها الناس أن في الخمر والميسر أضرارًا ومفاسدَ كثيرة في الدين والدنيا، وليس فيهما منافع إلا شيئًا يسيرًا من جهة كسب الأموال وغيرها، وهو لا يعادل شيئًا مقابل مضارهما الكبيرة.
ثم سألوا النبي ﷺ ماذا ينفقون؟ فأمره الله أن يقول لهم: أن ينفقوا من أمولهم ما كان زائدًا عن الحاجة الضرورية، واعلموا أن بمثل هذا البيان الشافي الكافي يبين الله لكم الآيات والدلالات الواضحة علىٰ شرعه لكي تستعملوا أيها الناس أفكاركم فيما ينفعكم في الدنيا والآخرة.

قال صاحب تفسير التنوير: إن بعض الصحابة قال: من زوج ابنته لشارب خمر فقد قادها إلىٰ الزنا.

وقال الشاعر عن الخمر:

أرىٰ كل قوم يحفظون حريمهم
وليس لأصحاب النبيذ حريم

والنبيذ هنا المقصود به: الخمر.

....

....

....

....

فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ
خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ
ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ
(٢٢٠) وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ
خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ
حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ
أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ
بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)
وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي
ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ
مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ
(٢٢٢) نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ
لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٢٢٣) وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ
وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (٢٢٤)

[٢٢٠] ثم سألوا النبي ﷺ عن اليتامىٰ الذين مات أباؤهم وهم دون سن البلوغ، فأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يخبرهم أن المهم هو إصلاح أموالهم بحفظها وتنميتها، وإن خلطتم أموالهم مع أموالكم مع عدم الإضرار بمال اليتيم فأنتم إخوان في الدين، والله يعلم من يريد إفساد مال اليتيم ممن يريد إصلاحه، ولو أراد الله لضيّق عليكم بتحريم المخالطة، ولكن يسر الله عليكم ثقة في حرصكم علىٰ الأمانة، وحرصكم علىٰ تنميتها كما تنمون أموالكم، واعلموا أن الله عزيز في ملكه، حكيم في أمره؛ لا يفعل إلا ما هو مقتضىٰ حكمته سبحانه وتعالىٰ.

[٢٢١] ثم نهىٰ جلّ وعلا المؤمنين أن يتزوجوا من النساء المشركات حتىٰ يدخلن في الإسلام؛ وبين أن الزواج من الأمة المسلمة خير من هذه المشركة، ولو كانت هذه المشركة ذات مال وجمال ونسب، وقد استثنىٰ سبحانه من ذلك نساء اليهود والنصارىٰ العفيفات الطاهرات؛ فإنه يجوز التزوج منهن، ثم نهىٰ المؤمنين أن يُزَوِّجوا بناتهم المؤمنات للمشركين، وبين أن تزويجها لعبد مسلم فقير خير من تزويجها لمشرك، ولو كان هذا المشرك ذا مال وحسب ونسب؛ لأن المشركين يدعون كل من يعاشرهم ويخالطهم إلىٰ النار، وإلىٰ كل سبب يُدْخِلُ النار، والله سبحانه وتعالىٰ يدعو إلىٰ الجنة، وإلىٰ كل سبب يُدْخِلُ الجنة ومغفرة الذنوب، والله يوضح لكم أيها الناس آياته لكي تتذكروا فتعتبروا.

[٢٢٢] ثم سأل الصحابة النبي ﷺ عن الحيض، الذي هو: دم يسيل من رحم المرأة في أوقات مخصوصة؛ فأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أيها الناس أن الحيض أذىً وأنه مضرٌ؛ فعليكم اعتزال النساء وعدم مجامعتهن أثناء فترة الحيض، وعليكم أن لا تجامعوهن حتىٰ ينقطع دم الحيض ثم يتطهرن؛ فإذا طهرت المرأة واغتسلت فجامعوها من حيث أمركم الله وهو بالقبل، واعلموا أن الله يحب التوابين من ذنوبهم، ويحب المتنزهين عن الفواحش والأقذار.

[٢٢٣] يخبر جلّ وعلا أن زوجاتكم موضع انجاب أولادكم فجامعوهن كيفما تريدون مقبلة أو مدبرة، بشرط أن يكون في القبل – أي: الفرج –؛ لأنه محل الحرث الذي يحصل منه الولد، وقدموا لأنفسكم من الخير الذي ينفعكم عند الله عز وجل، ومن ذلك أن تكون نيته عند جماع امرأته تحصين فرجه وفرج أمرأته وطلب الولد الصالح، وعليكم بتقوىٰ الله في اجتناب ما نهاكم عنه فإنكم غدًا ملاقوه ومحاسبون علىٰ أعمالكم، وبشر يانبي الله المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله بما يفرحهم ويسرهم مما أعد الله لهم من النعيم المقيم في جنات رب العالمين يوم القيامة.

وهذه الآية دليل علىٰ تحريم الوطء في الدبر، كما دلت كثير من الأحاديث علىٰ تحريم جماع المرأة في دبرها.

[٢٢٤] ثم حذر سبحانه المسلمين أن يجعلوا اليمين بالله مانعًا لهم عن فعل الخير والعمل الصالح والتقوىٰ والإصلاح بين الناس، فإذا طلب أحد منك عمل خير فلا تمتنع بحجة أنك أقسمت أو حلفت أن لا تفعل كذا وكذا، واعلموا أيها الناس أن الله يسمع أقوالكم، ويعلم أعمالكم وأحوالكم، وهو بكل شيء عليم.

ولقد حدثني أحد أصدقائي فقال: إنه كان بحاجة لمبلغ من المال فطلب من ابنه أن يقرضه هذا المبلغ فرد الابن قائلًا: والله إنني حلفت يمينًا أن لا أقرض أحدًا، فسبحان الله!! ألم يكن الأولىٰ به أن يكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير ويبرَّ بأبيه؟!

وهذه اليمين المذكورة في هذه الآية هي التي عن المستقبل، وهي التي فيها الكفارة، أما إذا كان الحالف جاهلًا بالواقع ويرىٰ أنه صادق فلا كفارة عليه، وهو ما يُسمىٰ باللغو عند الإمام أبي حنيفة.

أما اليمين عن الماضي فإن كان المقسم كاذبًا فهي التي تُسمىٰ باليمين الغموس، ولا كفارة لها عند أبي حنيفة، وعند الشافعي تجب فيها الكفارة، وعند الجمهور لا كفارة لها إلا التوبة، وطلب المغفرة من الله، ورد المظالم إلىٰ أهلها.

لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ
قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ
أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ
ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ
ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ
إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي
ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ
فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ
مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ
فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ
بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا
غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن
يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

[٢٢٥] يخبر جلّ وعلا أنه لا يعاقبكم بما يجري علىٰ ألسنتكم من أَيْمَانٍ بغير قصد، ولكن يعاقبكم بما تقصدونه من الكذب، واعلموا أن الله غفور لمن تاب وأناب ورجع عن خطئه، حليم حيث لم يعاجل بالعقوبة، فيصفح ويستر مع قدرته.

[٢٢٦] ثم بيَّن جل وعلا أن الذين حلفوا أن لا يجامعوا زوجاتهم أبدًا للإضرار بهن، أن يُعطَوْا مهلة أربعة أشهر؛ فإن كفَّر أحدهم عن يمينه وجامع زوجته بقيت عنده وحلّت له، وإن لم يفعل أجبره القاضي أن يطلقها، واعلموا أن الله غفور لما وقع منكم من الأيمان، رحيم بكم؛ حيث جعل لأيمانكم كفارة وتَحِلة.

[٢٢٧] ثم أخبر سبحانه إذا أصر الزوج علىٰ حلفه، وهجره لزوجته، ورفض أن يجامعها، وأصر علىٰ موقفه، ففي هذه الحال إما أن يطلقها، أو يقوم القاضي بتطليقها، واعلموا أيها الناس أن الله سميع لأقوالكم، عليم بأحوالكم، يعلم السر وأخفىٰ.

[٢٢٨] ثم أمر جلّ وعلا المطلقة أن تنتظر ثلاث حيضات بعد طلاقها لضمان استبراء الرحم، وإذا كانت لا تحيض فإنها تنتظر ثلاثة أشهر، وهذه هي عدة المرأة التي دخل بها زوجها، ولا يحل لها أن تكتم ما خلق الله في رحمها؛ سواءً كان حملًا أو حيضًا لتُبْطل حق الزوج من الولد والرجعة؛ إن كانت تؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر يوم الجزاء والحساب، واعلموا أن للزوج الحق أن يُرجع زوجته قبل انتهاء العدة إن كان يريد المعاشرة الحسنة، وليعلم الزوجان أن لكل منهما حقوق علىٰ الآخر، وأن للزوج علىٰ الزوجة رتبة ومنزلة أعلىٰ بحكم الإنفاق والقوامة، والله عزيز له العزة القاهرة والسلطان العظيم، حكيم يضع الأمور في موضعها المناسب.

[٢٢٩] واعلموا أيها الناس أن الطلاق الصحيح الذي يملكه الزوج هو طلقتان فقط، يمكن للزوج أن يراجع زوجته فيهما؛ فمن وقعت منه الطلقة الأولىٰ أو الثانية فله أن يراجع زوجته، ويحسن معاشرتها، أو أن يطلقها بلا ظلم ولا عدوان، ولا يحل للزوج أن يأخذ شيئًا من مهرها إذا طلقها، إلا عن طريق الخلع، فإذا عرفتم أنه لا يمكن الإصلاح بين الزوجين وتأكدتم من عدم قدرتهما علىٰ القيام بالحقوق الزوجية؛ فإنه والحال هذه يجوز للمرأة أن تفدي نفسها بمخالعة زوجها بمقابل مالي لكي يطلقها، واعلموا أن هذه الأحكام هي أوامر الله فلا تتجاوزوها؛ فإن من يتجاوزها فأولئك هم الظالمون لأنفسهم.

[٢٣٠] واعلم أيها الزوج أنك إذا طلقت امرأتك الطلقة الثالثة فإنها لا تحل لك حتىٰ تتزوج رجلًا آخر؛ فإن طلقها الزوج الثاني وانتهت عدتها فلا مانع أن يعود الزوج الأول فيتزوجها، ولكن بعقد وصداق جديدين، بشرط أن يكونا متأكدين أنهما سيقيمان حدود الله وأوامره، واعلموا أن تلك أحكام الله العادلة يبينها لقوم يعلمون الحق ويعملون به.

الجزء الثاني سورة البقرة

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ
أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا
وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا
طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ
أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ
مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ
كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ
وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ
وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ
أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ
أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا
آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

٣٧

[٢٣١] يأمر جلّ وعلا إذا طلق أحدكم امرأته الطلقة الأولىٰ والثانية ثم قاربت الانتهاء من عدتها، فإما أن يراجعها ويعاشرها بالمعروف أو يتركها حتىٰ تنقضي عدتها، ويحرم عليكم أن تراجعوها بنية الإضرار بها والاعتداء علىٰ حقوقها، وإن من يفعل ذلك فقد ظلم نفسه لأنه عرضها للعقاب.

واحذروا أيها الناس أن تتخذوا آيات الله لعبًا بعدم الامتثال لها، واذكروا نعمة الإسلام عليكم، وما أُنزل عليكم من القرآن والسنة التي فيها الخير والنصح والإرشاد لكم، وخافوا الله وراقبوه فإنه بكل شيء عليم، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

[٢٣٢] ثم أمر جل وعلا الأولياء أن لا يمنعوا المرأة من العودة لزوجها الذي طلقها دون الثلاث، وقد انقضت عدتها، وعلموا أنهم قد تراضوا بينهم، بشرط أن يكون ذلك بعقد وصداق جديدين، وهذا الحكم والتوجيه يتعظ به من كان يؤمن منكم بالله واليوم الآخر، واعلموا أن عودة المطلقة لزوجها وعدم عضلها خير لكم وأطهر من ارتكاب الذنوب والآثام؛ والله يعلم ما يصلح لكم أيها الناس، وأنتم لا تعلمون، ومن ذلك أن كلًا منهما قد علم القصور الذي عند الآخر وقرر عدم المؤاخذة عليه.

[٢٣٣] يخبر جل وعلا أنه يجب علىٰ الوالدة المرضعة المطلقة أن تُرضع ولدها عامين كاملين إذا أراد الوالدان إتمام الرضاعة، ويجب علىٰ الآباء النفقة علىٰ الأم المرضعة بحسب حالهم من الغنىٰ والفقر؛ فإن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، ولا يحل للأب أن يضر بالأم بسبب ولدها بأن تُمنع من الرضاعة، أو لا تُعطىٰ ما يجب لها من النفقة، وكذلك لا يحل للأم أن تمتنع من إرضاع ولدها فيتضرر، أو تطلب زيادة في النفقة علىٰ الواجب المعروف.

وإذا كان والد الطفل ميتًا فيجب علىٰ وارثه ما يجب علىٰ مورثه من النفقة والكسوة؛ فإذا أراد الوالدان بالتراضي والتشاور بينهما فِطَامَ الطفل قبل انتهاء السنتين فلا حرج في ذلك، وإذا اتفق الوالدان أن يستخدموا من ترضع الطفل غير أمه فلهم ذلك بشرط أن تُعطىٰ الأم حقها، وتُعطىٰ المرضعة الأجرة المتفق عليها، وخافوا الله أيها الناس وراقبوه في جميع أحوالكم، فإنه بصير بما تعملون وسيجازيكم علىٰ جميع أعمالكم.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ
أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ
فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ
٢٣٤ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ
أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ
وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ
وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ
وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ
أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ
مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى
ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ
فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ
أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ
وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧

[٢٣٤] بين جل وعلا أن الرجل إذا مات وكان عنده زوجة أو زوجات وجب عليهن العدة، وهي: أن ينتظرن أربعة أشهر وعشرة أيام، وذلك لأمرين:

الأول: تقديرًا واحترامًا لزوجها المتوفَّىٰ.

والثاني: ليتبين إن كانت حاملًا أم لا.

وليس لها في هذه المدة أن تخرج من منزل زوجها إلا لضرورة، وتكون نفقتها من التركة، وليس لها أن تتجمل أو تتعرض للخُطَّاب، فإذا انتهت المدة المقررة شرعًا فلا إثم عليها من التزين والخروج والتزوج ونحو ذلك كما شرع الله، واعلموا أن الله بما تعملون خبير فاحذروه ولا تخالفوا أمره.

[٢٣٥] ثم أخبر جل وعلا أنه لا إثم عليكم في التعريض بخِطبة المرأة بطريق التلميح دون التصريح قبل أن تنتهي عدتها، ولا إثم أيضًا فيما أخفيتموه في أنفسكم من الخِطبة والزواج، فإن الله يعلم أنكم لن تصبروا علىٰ السكوت عنهن لذا رخص لكم في التلميح أو الإضمار في النفس، واحذروا أن تتفقوا علىٰ الزواج في أثناء العدة، إلا أن تقولوا قولًا يُفهم منه الرغبة في الزواج كالتلميح فهذا جائز، ولا يحل لكم أن تعزموا عقدة النكاح حتىٰ تنتهي العدة، واعلموا أن الله مُطَّلِع علىٰ أسراركم فاحذروه، وأنه غفور لمن تاب من ذنوبه، حليم علىٰ العاصين حيث لم يعجِّل عقوبتهم.

[٢٣٦] واعلموا أيها الرجال أنه لا إثم عليكم إذا طلقتم النساء بعد العقد عليهن وقبل الخلوة بهن، ولم تحددوا لهن مهرًا، ففي هذه الحال عليكم أن تمتعوهن بشيء من المال جبرًا لهن لما أصابهن من ألم الطلاق، والمتعة تكون بحسب الحال من الغنىٰ والفقر وعلىٰ الوجه المعروف شرعًا، وهي حق واجب علىٰ أهل الإحسان والكرم، أما إذا خلا الزوج بزوجته فقد وجب لها المهر كاملًا؛ حتىٰ لو لم يجامعها؛ فإن كان محددًا وإلا فمهر المثل.

[٢٣٧] ثم اعلموا أنكم إذا طلقتم النساء قبل أن تدخلوا بهن وقد فرضتم لهن مهرًا محددًا فالواجب عليكم أن تدفعوا لهن نصف ما اتفقتم عليه، إلا إذا تسامحت المطلقة وتنازلت عن نصفها فلها ذلك، أو يسامح الزوج عن نصفه فيترك المهر كله أو جله لها، واعلموا أن العفو أقرب لتقوىٰ الله وخشيته، ولا تنسوا المودة والإحسان بينكم؛ فإن الله يعلم المحسن منكم من المسيء.

وفي قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ لم يحدد العافي ليعم الجميع، أي: الزوج أو أولياء الزوجة، وليحث الموسرين من الطرفين علىٰ التخلي عن حقّه للثاني.

حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ
قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ
فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ
﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا
وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ
خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ
مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ
بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ
إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ
فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ
عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾
وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٤﴾ مَّن
ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا
كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

[٢٣٨] يأمر جل وعلا المسلمين بالمحافظة علىٰ الصلوات في أوقاتها جماعة، وخاصة صلاة العصر، والمحافظة عليها يكون بأدائها في وقتها، والإتيان بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، وأدائها بخشوع وخضوع جماعة إن لم يكن هناك مانع، وإذا قمتم إلىٰ الصلاة فعليكم أن تقوموا لها ذاكرين خاشعين خاضعين.

وقد اختلف أهل العلم في الصلاة الوسطىٰ، وأرجح الأقوال أنها صلاة العصر؛ لقول الرسول ﷺ بعد انتهاء غزوة الأحزاب لما توجه إلىٰ الغادرين المتمالئين مع الكفار، قال: «**حبسونا أو شغلونا عن الصلاة الوسطىٰ**»[1]، وكانت صلاة العصر، وقيل: كل صلاة هي وُسطىٰ لأنها تقع بين صلاتين.

وقال فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله: الصلاة الوسطىٰ، أي: الفُضلىٰ، مثل قول الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة:١٤٣]، أي: أفضل الأمم، وليست بمعنىٰ: الوسط بين الشيئين.

[٢٣٩] ثم بين جل وعلا أنه إذا حصل خوف من عدو وغيره ولم تتمكنوا من أداء الصلاة علىٰ الوجه المطلوب، فَصَلُّوا علىٰ أي هيئة تستطيعونها؛ سواء كنتم ماشين علىٰ أرجلكم أو راكبين علىٰ الخيل والإبل وغيرها من المركوبات، ولو لم تستقبلوا القبلة؛ فإذا زال الخوف فأدوا الصلاة علىٰ الوجه المطلوب، وأكثروا من ذكر الله واشكروه علىٰ نعمة الأمن ونعمة العلم، وقد كنتم من قبل علىٰ جهل وضلال.

[٢٤٠] يخبر جل وعلا أنه يجب علىٰ الزوج أن يوصي قبل وفاته: أن تبقىٰ زوجاته سنة كاملة في منزل زوجها ولا يحق للورثة أن يخرجوهن مدة السنة، وذلك جبرًا لخاطرهن؛ فإذا رغبت الزوجات في الخروج قبل انتهاء المدة فلا إثم عليكم، ولا إثم عليكم أيضًا في أن تأذنوا لهن بالتجمل والتزين بما هو مباح من أجل الخِطْبَةِ والزواج، واعلموا أن الله عزيز في ملكه، حكيم في أمره ونهيه، يضع الأمور في مواضعها.

وهذه الآية قيل: إنها منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا﴾ [البقرة:٢٣٤] وأن الأربعة أشهر وعشرة: هي الواجبة، والعمل علىٰ هذا عند أهل العلم.

[٢٤١] واعلموا أن للمطلقة حق علىٰ زوجها وهو أن يُمتِّعها بشيء من المال أو الكسوة ونحوها بقدر استطاعته؛ ليجبر خاطرها ويخفف ألم الطلاق عليها، وهذا يفعله الذين يخافون الله ويتقونه في كل أمورهم، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ﴾ [البقرة:٢٣٧].

[٢٤٢] ثم اعلموا أن كل هذه الأحكام التي بيناها لكم لكي تتعلموها وتعقلوها وتعملوا بها.

[٢٤٣] ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال له: ألم تعلم يانبي الله بأولئك الذين فروا من أرضهم وبيوتهم وهم ألوف خوفًا من الهلاك من مرض الطاعون الذي ظهر بها، فأماتهم الله بكلمة ثم أحياهم بكلمة ليبين لهم أنه لا مفر من قدر الله، وأن الله علىٰ كل شيء قدير، واعلموا أن الله ذو فضل علىٰ الناس، ولكن أكثر الناس يجحدون نعمة الله ولا يشكرونها.

وقد قيل: إن الذين خرجوا كان عددهم عشرة آلاف.

[٢٤٤] يحث جلّ وعلا عبادة المؤمنين علىٰ الجهاد في سبيله لإعلاء كلمة الله، وأن لا يتأخروا متىٰ دعوا للجهاد بالنفس والمال، واعلموا أن الله سميع لأقوالكم وإن خَفَتَتْ، عليم بنياتكم وإخلاصكم.

[٢٤٥] ثم حثَّ جل وعلا عباده علىٰ الإنفاق في سبيل الله لمرضاة ربهم ونصرة دينه محتسبين الأجر في ذلك؛ وقد تعهد الله بمضاعفة نفقاتهم أضعافًا كثيرة، وبيَّن سبحانه أن مفاتحَ الرزقِ بيده؛ يضيق علىٰ من يشاء ويوسع علىٰ من يشاء، واعلموا أنكم إليه وحده ترجعون بعد الموت، فيجازيكم علىٰ أعمالكم؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧)

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ
قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ
قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ
قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا
مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ
نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ
قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ
بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ
ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ
وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾
وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

[٢٤٦] يقصُّ جلّ وعلا علىٰ نبيه ﷺ قصة الأشراف من بني إسرائيل الذين جاءوا بعد زمان موسىٰ عليه السلام، فقال جلّ وعلا: ألم تعلم يانبي الله بخبر القوم من بني إسرائيل الذين جاءوا بعد موسىٰ عليه السلام؛ حين طلبوا من نبيهم شمعون أن يولي عليهم قائدًا ملكًا يجتمعون تحت رايته ويقاتلون في سبيل الله.

فقال لهم نبيهم: أخشىٰ إن أوجب الله عليكم القتال ألّا تقاتلوا.
فقالوا: لماذا لا نقاتل في سبيل الله وقد شَرَّدنا عدونا من ديارنا وفرَّقنا عن أبنائنا؟
فلما أوجب الله عليهم القتال مع القائد الذي عينه لهم فرَّ أكثرهم وتركوا القتال جُبنًا وخوفًا، ولم يصبر منهم إلا فئة قليلة ثبتت بفضل الله، واعلموا أيها الناس أن الله عليم بالظالمين الذين ينكُثون ما عاهدوا الله عليه.

[٢٤٧] ثم قال لهم نبيهم: إن الله قد اختار لكم طالوت ملكًا وقائدًا تقاتلون تحت رايته، فاعترضوا كعادتهم وقالوا: كيف يكون ملكًا علينا وهو ليس أهلًا لذلك، ثم عللوا سبب اعتراضهم، فقالوا:
أولًا: نحن أحق بالملك منه؛ لأنه لم يكن من سبط يهودا، والملك كان في سَبْطه.
ثانيًا: أنه لم يكن من أهل الثراء والغنىٰ.
فرد عليهم نبيهم فقال: اعلموا ياقوم أن الله اختاره وهو أعلم بمن يختار، وقد أعطاه الله سعة في العلم وقوة في الجسم.؟
واعلموا أن الله يعطي الملك لمن يشاء من عباده، والله واسع الفضل كثير الإحسان، عليم بخفايا الأمور وأسرارها، وهو أعلم بمن هو أهل للملك فيصطفيه علىٰ غيره من الخلق.

[٢٤٨] ثم قال لهم نبيهم أيضًا: إن علامة ملكه أن يُحضر لكم الصندوق الذي استولىٰ عليه الأعداء؛ والذي فيه التوراة وفيه طمأنينة من ربكم، وفيه بقايا من آثار موسىٰ وهارون، مثل العصا والثياب، تأتي به الملائكة وتضعه بين يدي طالوت.
واعلموا أن في ذلك دليل وبرهان لكم علىٰ اختيار طالوت ملكًا عليكم بأمر من الله، إن كنتم تصدِّقون بالله ورسوله وتعملون بشرعه.

[٢٤٩] ثم أخبر سبحانه أن طالوت لمَّا فصل بالجنود لقتال العمالقة؛ قال لهم طالوت: إن الله مختبركم بنهر سوف تمرون عليه فمن شرب منه فليس من جندي، ومن لم يذقه فإنه من جندي؛ إلا من اغترف غرفة واحدة بيده.

وهذا من رحمة الله ولطفه بجنده أنه أذن لمن اشتد به العطش أن يبلَّ شفتيه وحلقه بحفنة من الماء.

فلما وصلوا إلىٰ النهر وقد بلغ بهم العطش مبلغه شرب أكثرهم إلا نفر قليل صبروا، فلما تجاوز طالوت النهر هو والقلة من المؤمنين الذين معه، ورأوا كثرة عدوهم وعدتهم قالوا: لا طاقة لنا بجالوت وجنوده، فردّ أولئك الصادقون الصابرون وقالوا: كم من مجموعة قليلة مؤمنة صابرة غلبت مجموعة كثيرة كافرة بإذن الله وأمره وتأييده، واعلموا أن الله مع الصابرين يؤيدهم وينزل السكينة عليهم.

وهكذا ربط الله الانتصار في المعركة بالانتصار علىٰ النفس، وأن من لم يستطع الانتصار علىٰ هواه فإنه مغلوب، كما قال الشاعر:

عليك بالنفس فاحكمها فمن ملكت

قيادَه النفسُ عاش الدهر مخذولًا

وقوله: ﴿فَصَلَتِ﴾، أي: خرج، كما قال تعالىٰ في قصة يوسف: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ [يوسف:٩٤]، أي: ولما خرجت العير من مصر.

[٢٥٠] ولما التقىٰ الجيشان، جيش طالوت وجيش جالوت، قال جيش طالوت: يارب مدنا بصبر من عندك، وثبت اقدامنا أمام عدونا، وانصرنا علىٰ الأعداء الكافرين الجاحدين المجرمين.

[٢٥١] ثم بين جل وعلا أن جيش طالوت هزم جيش جالوت بإذن الله وفضله، وأن داود قتل جالوت، وحصل بذلك الفتح والنصر، ولذا فقد كافأ الله داود عليه السلام وأعطاه الملك والنبوة في بني إسرائيل، وعلّمه مما يشاء من العلوم، ثم بين سبحانه أنه لولا دفع الله بعض أهل الشر ببعض أهل الخير لفسدت الأرض وعم الكفر وتمكن الشر، ولكن الله جل في علاه ذو فضل علىٰ المخلوقين جميعًا.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم
بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ
فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ
إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ
قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ
قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ
رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا
عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ
وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ
وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ
بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو
فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا
عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢

قال بعض المفسرين: إن طالوت قال للثابتين معه: من يقتل جالوت العدو وهو ملك الكفار فسوف أتنازل له عن الملك، وكان من بين جنود طالوت رجل اسمه داود، فباشر داود فقتل جالوت فتنازل طالوت عن الملك له، فصار داود عليه السلام ملكًا وآتاه الله النبوة، وعلمه مما يشاء من العلوم والمعرفة.

[٢٥٢] واعلم يانبي الله أن هذه الأخبار والآيات هي حجج وبراهين وأدلة نقصُّها عليك بالحق وحيًا يُتلىٰ عليك؛ وأنك رسول صادق أمين مرسل من عند رب العالمين.

۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ
وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ
وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ
بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟
فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟
مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا
شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا
بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا
وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ
ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ
بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

[٢٥٣] يخبر جلّ وعلا أنه فضل بعض الرسل علىٰ بعض؛ فمن هؤلاء الرسل من كلم الله مثل آدم وموسىٰ ونبينا محمد عليهم السلام أجمعين، ومنهم من رفعه الله درجات كمحمد ﷺ، ثم بين سبحانه أنه أعطىٰ عيسىٰ بن مريم عليه السلام المعجزات الباهرات كإبراء الأكمه وإحياء الموتىٰ، وأيده بجبريل وذلك بإعانته ومؤازرته، ورفعه سبحانه إلىٰ السماء لما همَّ اليهود بقتله وصلبه، ثم بين سبحانه أنه لو أراد ما اقتتل الناس بعد أن جاءهم الأنبياء والرسل بالأدلة والبراهين، ولجمعهم علىٰ الهدىٰ، ولكن اقتضت حكمته سبحانه وتعالىٰ أن يجعلهم مختارين، ولذلك اختلف أتباعهم؛ فمنهم من ثبت علىٰ إيمانه، ومنهم من أصر علىٰ كفره وضلاله، ولو أراد الله ما اقتتلوا ولا وقع بينهم الاختلاف، ولكن الله يفعل ما يريد في خلقه وملكه ويختار.

وهذه الآية دليل علىٰ أن الصراع بين الحق والباطل باقٍ إلىٰ قيام الساعة، وفيها إثبات صفة الكلام لله جلّ وعلا علىٰ الوجه اللائق بجلاله وعظمته من غير تشبيه أو تأويل أو تعطيل.

[٢٥٤] يحث جلّ وعلا عبادة المؤمنين علىٰ الإنفاق في سبيل الله وفي جميع وجوه الخير ببعض ما رزقهم من أنواع النعم قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا بيع فيه ولا فداء ولا صداقة ولا شفاعة تنفعكم، واعلموا أن الكافرين الجاحدين بآيات الله هم الظالمون المتجاوزون لحدود الله.

[٢٥٥] يخبر جل وعلا أنه وحده المستحق للألوهية، وهو حي دائم باق لا يموت ولا يفنىٰ، وأنه قائم علىٰ تدبير الخلق وتصريف الكون، لا يأخذه النعاس ولا النوم، وأنه يملك كل ما في السماوات وما في الأرض، ولا يشفع أحد لأحد إلا إذا أذن للشافع ورضي عن المشفوع، وأن علمه محيط بجميع الكائنات، ويعلم ما بين أيدي الخلائق في مستقبلهم وما خلفهم مما مضىٰ، ولا يطلع أحد من الخلق علىٰ شيء من علمه إلا بما أعلمه الله وأطلعه عليه، وأنه وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يثقله سبحانه حفظهما، وهو العلي بذاته وصفاته له العظمة والكبرياء.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾، هو أعظم الأسماء التسعة والتسعين؛ لأنه دال علىٰ الذات الجامعة لصفات الألوهية كلها، وقال الجمهور: إنه الاسم الأعظم مطلقًا، وقال آخرون: الاسم الأعظم: هو الحي القيوم.

وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، قال شيخنا الشيخ ابن باز رحمه الله: الكرسي من مخلوقات الله العظيمة، وهو فوق العرش الذي هو سقف العالم، ومحيط بالكون كله، والله جل وعلا فوقه، ولا يشبهه شيء، ولا يُعلم من صفاته إلا ما أعلمَ عنها الله في كتابه، أو أعلم عنها نبيه ﷺ.

وقال رحمه الله: ولم يضق كرسيه لبسطته وسعته عن السماوات والأرض، فهو محيط بالسماوات والأرض، والعرش محيط بالكل، قال ﷺ: «**ما السماوات السبع والأرضون السبع من الكرسي إلا كحلقة في فلاة**»(١).

وقال رحمه الله أيضًا: وفَضْلُ العرش وسعته علىٰ الكرسي كفضل تلك الفلاة علىٰ تلك الحلقة، والله سبحانه أعظم وأجل وأكبر.

وهذه الآية تسمىٰ آية الكرسي، وقد أخبر ﷺ أنها أفضل آية في القرآن، وورد في فضلها أحاديث كثيرة.

[٢٥٦] نهىٰ جل وعلا أن يكره علىٰ الإسلام من يدفع الجزية؛ لأنه قد تبين الهدىٰ من الضلال، فمن يكفر بكل ما عبد من دون الله، ويؤمن بالله وحده لا شريك له فقد استمسك بالطريقة المثلىٰ التي لا تنقطع، واعلموا أن الله سميع لأقوالكم عليم بنياتكم، وسيجازي كلًّا بعمله، إن خيرًا فخير وإن شرًّ فشر.

والنهي الوارد في هذه الآية نهي خاص بأهل الكتب السماوية، أما المشركون والملحدون والدهريون فإنهم لا تقبل منهم الجزية؛ بل قال تعالىٰ في حقهم: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح:١٦].

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٨١)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٣٠). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٩).

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ
ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ
أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ
وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي
بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي
كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوۡ كَٱلَّذِي
مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ
هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ
قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل
لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ
وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى
ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾

[٢٥٧] واعلموا أيها الناس أن الله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض هو ولي المؤمنين يتولىٰ أمورهم فيحفظهم ويرعاهم، ويخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلال إلىٰ نور الهداية والعلم والإيمان، أما الذين جحدوا آيات الله وكفروا بها فأولياؤهم وأنصارهم الشياطين من الجن والإنس؛ الذين يسعون جاهدين في إخراجهم من نور الهداية والإيمان إلىٰ ظلمات الكفر والضلال، وهؤلاء الجاحدون هم أصحاب النار خالدون فيها أبد الآبدين.

[٢٥٨] يخبر جل وعلا عن الحوار الذي جرىٰ بين إبراهيم عليه السلام والملك الطاغية النمرود، فقال سبحانه لنبيه ﷺ: هل رأيت يانبي الله إلىٰ جرأة هذا الملك الطاغية الذي خاصم نبينا إبراهيم عليه السلام في توحيد الله وربوبيته وعبوديته، فقد أعطيناه الملك فطغىٰ وتكبر وغره ملكه ولم يشكر ربه الذي اعطاه هذا الملك، فدعاه إبراهيم عليه السلام لتوحيد الله وربوبيته وعبوديته، فسأل الملك الطاغية إبراهيم عليه السلام عن ربه، فأجابه عليه السلام: ربي الذي يحيي ويميت، فردّ هذا الطاغية الجاحد فقال: وأنا أيضًا أحيي وأميت، ألا ترىٰ أنني أقتل من شئت وأعفو عمن شئت فأكون قد أحييته، فقال له إبراهيم: وما دام الأمر كذلك؛ فأنت تعلم أن الله يأمر الشمس فتخرج كل يوم من جهة المشرق؛ فهل تستطيع أن تغير سنة الله وتجعلها تخرج من جهة المغرب، فتحير هذا المجرم الفاجر وانقطع عن الجدال بعد أن أفحمه إبراهيم عليه السلام، وهذا شأن كل ظالم فإن الله لا يهديه إلىٰ الحق والصواب.

[٢٥٩] ثم تحدث جل وعلا عن رجل متعجب من قدرة الله تعالىٰ؛ حيث مر علىٰ قرية قد تهدمت وخربت، فقال: كيف يحيي الله هذه القرية بعد دمارها وموت أهلها؟ فأماته الله مائة عام وأمات معه حماره، ثم بعثه، وقال له: كم لبثت ميتًا؟ فقال: لبثت يومًا أو بعض يوم، فقال له ربه: بل بقيت ميتًا مائة عام، ثم أمره أن ينظر إلىٰ طعامه وشرابه كيف حفظه الله ولم يفسده، وأمره أن ينظر إلىٰ حماره الذي مات معه لكي يرىٰ كيف ينشأ وتبث الحياة فيه بعد أن كان عظامًا متفرقه، واعلم أن الله أراك ذلك لتعلم قدرته، ولتكون دلالة ظاهرة للناس علىٰ البعث بعد الموت، ثم أمره جل وعلا أن ينظر إلىٰ حماره ويشاهد درجات تركيب جسمه كيف يصل العظام بعضها ببعض، ويرفع بعضها علىٰ بعض، ثم يكسوها لحمًا، ثم ينفخ فيها الروح لتعود إليها الحياة، فلما تبين له ورأىٰ قدرة الله بعينه اعترف بعظمته، وأنه علىٰ كل شيء قدير.

قال بعض المفسرين: إن الذي مر علىٰ هذه القرية هو عُزير أحد أنبياء بني إسرائيل، لهذا قال اليهود - عليهم من الله ما يستحقون -: عُزير ابن الله، ولذا عبدوه.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ
تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ
ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا
ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ
يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ
أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ
أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ
يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ
رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ
صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ
عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

[٢٦٠] ثم أخبر جل وعلا بالحوار الذي جرىٰ بينه وبين إبراهيم عليه السلام، حيث طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيفية إحياء الموتىٰ، فقال الله عز وجل: ألم تؤمن يا إبراهيم بأني قادر علىٰ إحياء الموتىٰ؟

فرد إبراهيم قائلًا: بلىٰ، ولكني أرغب أن أرىٰ كيفية الإحياء لأزداد إيمانًا ويقينًا، فأمره جلّ في علاه أن يأخذ أربعة من الطير فيضمها إليه، ثم يذبحها ويقطعها، ثم يخلطها ببعضها البعض، ثم يجعل علىٰ كل جبل منهن قسمًا، ثم أمره أن يناديها، فلما ناداها أتته مسرعة بعد أن ردَّ الله إليها روحها، وعاد كل عضو إلىٰ أصله، واعلم يا إبراهيم أن الله عزيز لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، حكيم يضع كل شيء في موضعه المناسب بحكمة وإحسان.

قال الشيخ المفسر محمد متولي الشعراوي: إن إبراهيم عليه السلام لم يشك في قدرة الله تعالىٰ، ولكنه أراد معرفة الكيفية، ولم يكن يريد أن يزيد إيمانه.

ومعلوم أن الأشاعرة وأغلب الفرق والطوائف يقولون: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، أما أهل السنة والجماعة فيقولون: إن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي وهذا هو الصواب الذي دل عليه الكتاب والسنة.

[٢٦١] يحث جلّ وعلا عباده علىٰ الإنفاق في سبيل الله، وشبَّه سبحانه الذي ينفق ماله في سبيله كمن يزرع حبة قمح، وهذه الحبة تنبت سبع سنابل، وفي كل سنبلة مائة حبة، فيكون الناتج من حبة واحدة فقط سبعمائة حبة، وهكذا فإن الذي ينفق ماله في إعلاء كلمة الله فإن الله يضاعف له الأجر والثواب مضاعفات كثيرة، والله واسع الفضل والكرم، عليم بما تكنه صدوركم ونياتكم.

[٢٦٢] ثم بشر جلّ وعلا أن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله لنصرة دينه وإعلاء كلمته، ثم لا يُتبعون صدقاتهم بالمنّ ولا أذية السائلين، فإن لهم الأجر والثواب من ربهم بحسب نفقتهم ونيتهم، وهؤلاء لا خوف عليهم مما يرون يوم القيامة من الأهوال، ولا يحزنون علىٰ ما فاتهم من حطام الدنيا.

[٢٦٣] ثم أخبر جلّ وعلا أن الكلمة الطيبة التي يُرد بها الفقير، والعفو عما بدر منه من إلحاح وغيره، خير من صدقة يتبعها أذية وكلام سيِّيء ونحوه، واعلموا أن الله غني عن أموالكم، حليم لا يعاجل بالعقوبة من يخالف أمره.

[٢٦٤] يأيها الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه وتصدقوا في سبيله؛ لا تضيعوا أجر صدقاتكم بالمنّ علىٰ الفقير والمحتاج، والإساءة إليه بكلام أو فعل جارح، وتكونوا كمن ينفق ماله ليراه الناس فيثنوا عليه، وهو لا يؤمن بالله ولا يؤمن بيوم القيامة، واعلموا أن عمل هذا المرائي يشبه التراب الموجود علىٰ حجر أملس، ثم هطل عليه مطر فأزاح التراب وترك الحجر أملس ليس للغيث أثر عليه، وهكذا المنافق المرائي تذهب أعماله عند الله هباء، ولا يجد ثوابًا علىٰ ما قدم من نفقات، والله لا يوفق الكفار إلىٰ ما يسعدهم وينجيهم لإصرارهم علىٰ الكفر وعدم قبول الحق، كما قال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [المنافقون:٣].

[٢٦٥] ثم أخبر جلّ وعلا أن الذين ينفقون أموالهم ابتغاء وجه الله، وهم ثابتون مطمئنون؛ كمثل بستان في مكان مرتفع من الأرض أصابه مطر غزير فأثمر ضعف إنتاجه؛ فإن لم يصبه مطر غزير فيكفيه أن يصيبه الندىٰ الخفيف، وهكذا من ينفق أمواله مريدًا بها وجه الله والدار الآخرة، فإنها تُقبل عند الله وتضاعف أضعافًا كثيرة، واعلموا أن الله مطلع علىٰ أعمالكم بصير بها، وسيجازيكم عليها.

[٢٦٦] ثم يسأل جل في علاه عباده فيقول لهم: أيحب أحدكم أيها الناس أن يكون له بستان مثمر بالنخيل والأعناب، تجري من تحت أشجاره المياه، ويحتوي علىٰ كل أنواع الثمار؟

وكان صاحب البستان رجلًا كبيرًا في السن، وله أبناء صغار لا يقدرون علىٰ الكسب، وفي هذه الأثناء هبت ريح عاصف فيها نار أصابت هذا البستان فأحرقته، فكيف تكون حسرته وحزنه؟

وهكذا الذي ينفق أمواله رئاء الناس، يأتي يوم القيامة وقد ذهبت حسناته، وبمثل هذا يوضح سبحانه وتعالىٰ الأمثال للناس لكي يتدبروا ويعتبروا.

[٢٦٧] يحث جلّ وعلا عباده المؤمنين علىٰ الإنفاق مما كسبوا من الحلال الطيب في التجارات، ومما تُخرج الأرض لهم من الحبوب والثمار والمعادن وغير ذلك، ونهاهم سبحانه عن الإنفاق من الأموال الرديئة التي لو بُذلت لهم لم يقبلونها إلا بالكره وغض الطرف عنها؛ فكيف يرضون أن تكون نفقاتهم لله من الرديء ولا يرضونها لأنفسهم؟!، واعلموا أن الله غني عنهم وعن نفقاتهم، وأنه تعالىٰ مستحق للثناء ومحمود في كل حال.

[٢٦٨] ثم حذر جلّ وعلا من الشيطان ووساوسه؛ وأخبر أنه يخوفكم من الفقر حتىٰ لا تتصدقوا، وفي المقابل يأمركم بالمعاصي فتنفقون أموالكم فيها، وتبخلون بها في الخير، واعلموا أن الله سبحانه وتعالىٰ يأمركم بالإنفاق في سبيله لتكون النفقة سببًا في مغفرة ذنوبكم، ويُخلِف عليكم فيما أنفقتموه، كما أن في الإنفاق سدًّا لحاجات إخوانكم المحتاجين، والله واسع الفضل كثير الإحسان، وهو عليم يعلم من يستحق الثواب والثناء.

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ
وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ
جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ
فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ
ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا
لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ
وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ
حَمِيدٌ ٢٦٧ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ
وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ
٢٦٨ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٦٩

[٢٦٩] واعلموا أيها الناس أن الله يعطي العلم من طَلَبَهُ وسعىٰ في تحصيله رغبة في العلم، ثم بين سبحانه أن من أنعم الله عليه وشرح صدره للعلم والفقه فقد حصل علىٰ خير كثير، كما قال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»[1]، وما يتعظ بهذه الآيات وهذه التوجيهات الربانية إلا أصحاب العقول النيرة والأحلام الكاملة.

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧)، عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ
يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ٢٧٠ إِن تُبۡدُواْ
ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا
ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن
سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١ ۞ لَّيۡسَ
عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا
تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا
ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ
وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ
يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم
بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ
خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم
بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ
رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤

[٢٧٠] يخبر جلّ وعلا أنه يعلم كل نفقه أنفقتموها في وجه الخير، وكل نذر ألزمتم أنفسكم به، وأن أعمالكم محفوظة لكم وسيجازيكم عليها، بحسب نياتكم، واعلموا أن من منع حق الله من الزكاة وغيرها فإنه ظالم لنفسه، وليس للظالمين من نصير ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله.

[٢٧١] واعلموا أيها المؤمنون أنكم إذا أعلنتم صدقاتكم وأظهرتموها بلا رياء ولا سمعة فَنِعْمَ ما فعلتم؛ لا سيما إن قصدتم أن تكونوا قدوة للآخرين، وإن تخفوها وتعطوها للفقراء سرًّا فهذا خير لكم وأنفع؛ فإنه جلّ وعلا يكفر عنكم سيئاتكم بهذه الصدقات، وخاصَّة إذا كانت خالصة لوجه الله، والله خبير بأعمالكم ونياتكم لا تخفىٰ عليه خافية.

[٢٧٢] واعلم يانبي الله أن الله لم يُوَكِّلْ إليك أمر هداية الكفار والمعاندين، وإنما عليك التوجيه والبلاغ، وأما الهداية والتوفيق فمن الله وحده، يهدي من يشاء إلىٰ دينه، واعلموا أن ما تنفقونه من المال يعود عليكم نفعه، واعلموا أن كل ما تنفقونه في سبيل الله لطلب رضىٰ الله مخلصين فيه لله وحده فإن أجره وثوابه يعود عليكم أضعافًا مضاعفة، والله عادل لا يظلم مثقال ذرة.

[٢٧٣] يحث جل وعلا عباده أن يجعلوا صدقاتهم للفقراء المجاهدين في سبيل الله الذين منعهم الجهاد من التكسب، فهم أشد الناس حاجة، ويظن من لا يعرفهم أنهم أغنياء لكونهم متعففين عن المسألة، ولكن يُعرفون بعلامات، وآثارُ الحاجةِ عليهم، وأنهم لا يسألون الناس أبدًا، وإن سألوا مضطرين فإنهم لا يُلِحُّون في المسألة، واعلم أيها المتصدق أن الله عليم بكل ما تنفقه، وأنه محفوظ، وسيجازيك عليه أعظم الجزاء.

وهذه الآية تعم جميع الفقراء المتعففين، كما قال ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «**ليس المسكين بالذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين المتعفف، اقرءوا إن شئتم: ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا﴾**»[1].

[٢٧٤] واعلموا أيها المؤمنون أن الذين يتصدقون بأموالهم ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهرًا؛ لهم ثواب عظيم عند الله، ولا خوف عليهم من أهوال يوم القيامة، ولا يحزنون علىٰ ما فاتهم من نعيم الدينا الفاني.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٦)، ومسلم (١٠٣٩).

ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ
مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ
مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ
عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧٥) يَمۡحَقُ
ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ
(٢٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ
وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (٢٧٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ
فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ
أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ
ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ
إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٢٨٠) وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى
ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (٢٨١)

[٢٧٥] ثم ذكر جلّ وعلا حال المرابين يوم القيامة أنهم يقومون من قبورهم كالمجانين حَالُهُمْ كحالِ من يُصرع في الدنيا بمس الشيطان، لأنهم كانوا يقولون: إنما البيع مثل الربا، فكذبهم الله وبين أن البيع حلال لما فيه من المصالح والمنافع للناس، وأن الربا حرام لما فيه من ظلم واستغلال للأفراد والمجتمعات، ثم بيّن سبحانه أن من بلغه تحريم الربا فامتثل وانزجر فله ما مضىٰ مما كسبه قبل أن يبلغه التحريم أو قبل توبته من الربا، وأَمْرُهُ إلىٰ الله يقضي فيه ما يشاء، وأما من استمر علىٰ تعاطي الربا بعد أن بلغه التحريم فأولئك قد وجبت عليهم العقوبة وهي دخول النار خالدين فيها.

والخلود المذكور في هذه الآية هو خلود أبدي في النار لمن كان عارفًا بالتحريم مستحلًّا له، لأنه يكذب حكم الله، وأما من تعاطىٰ الربا وهو يعلم ويعتقد أنه حرام فهو يعتبر مرتكبًا لكبيرة من كبائر الذنوب؛ فيعاقب في النار بقدر ذنوبه ثم يخرج منها بعد أن يطهره الله، أو يخرج بشفاعة الشافعين، أو رحمة أرحم الراحمين.

وقد أنكر بعض العلماء اقتحام الجني جسم الإنسان ودخوله فيه، وقالوا: إن المس غير الدخول، والجمهور ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية علىٰ خلاف ذلك، وذكروا أن الله أعطاه قدرة خاصَّة تمكنه من دخول بدن الإنسان، وبالأخص علىٰ الذين لا يتحصنون بذكر الله صباحًا ومساءً وعند النوم وغير ذلك.

[٢٧٦] ثم أخبر جلّ وعلا أنه بعدله يمحق الربا ويمحق مكاسب المرابين، وأنه بفضله يُنَمِّي صدقات المنفقين، ويكثرها لهم، والله لا يحب كل كافر معاند لشرع الله وحدوده، مستحل لأكل الربا، متمادٍ في الذنوب والمعاصي.

[٢٧٧] ثم وعد جل وعلا كل من آمن بالله ورسوله وعمل بشرعه، وعمل الأعمال الصالحة الطيبة، وأدّىٰ الصلاة علىٰ الوجه المطلوب كما أمر الله ورسوله، وأخرج زكاة ماله الواجبة عليه، بأن لهم الأجر والثواب العظيم من الله، وأنه لا خوف عليهم يوم القيامة، ولا يحزنون في الدنيا علىٰ ما فاتهم من حظوظها الفانية.

[٢٧٨] ثم أمر جلّ وعلا عبادة المؤمنين أن يخافوه، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وأن يتركوا ما بقي لهم من أموال ربويةٍ عند الناس قبل تحريم الربا، ويكتفوا بأخذ رؤوس أموالهم؛ إن كانوا مؤمنين حقًّا، وصادقين في توبتهم من الربا.

[٢٧٩] ثم هدد سبحانه وتعالىٰ المرابين إذا لم يمتثلوا أمر الله بأن ينتظروا حربًا من الله ورسوله قاسية، أما إن تابوا ورجعوا عن أكل الربا فلهم فقط أصول أموالهم بلا زيادة، لا يَظْلِمُونَ أحدًا بأخذ الزيادة منه ظلمًا وعدوانًا، ولا يَظْلِمَهُم أحدٌ بإنقاص أصول أموالهم.

[٢٨٠] واعملوا أن الذي عليه الدين إذا كان معسرًا لا يستطيع سداد ما عليه؛ فأمهلوه حتىٰ ييسر الله أمره، وإن تصدقتم عليه بإسقاط بعض الدين أو إسقاط الدين كله؛ فهذا لا شك أنه أفضل لكم، إن كنتم تعلمون فضل ذلك، وعظيم ثوابه عند الله.

[٢٨١] واحذروا أيها الناس ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة الذي سوف تعودون فيه إلىٰ ربكم؛ فيجازي كل واحد بعمله، فالمحسن يجازىٰ علىٰ إحسانه، والمسيء يجازىٰ علىٰ إساءته، دون أن يُظلم أحد في ذلك اليوم.

قال بعض المفسرين: هذه آخر آية نزلت من القران.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى
فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ
كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ
ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ
فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ
أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ
مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ
مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ
أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ
تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ
وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢

[٢٨٢] ينادي جل وعلا عباده المؤمنين قائلًا لهم: ياأيها الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه إذا تداينتم بدين إلىٰ وقت معلوم فاكتبوه حفظًا للحقوق، ومنعًا للخلاف والنزاع، واختاروا كاتبًا أمينًا ضابطًا يكتب بينكم.

ومن طُلب منه الكتابة وهو قادر فلا يمتنع، وعليه أن يحتسب الأجر والثواب في ذلك، وأن يشكر الله الذي أنعم عليه بالعلم.

ويجب علىٰ المدين أن يكتب كل ما عليه من الحقوق، ويراقب الله في ذلك، ولا يُنقص منها شيئًا.

فإن كان الذي عليه دين سفيهًا، أي: محجورٌ عليه لسبب من الأسباب الشرعية، أو كان ضعيف العقل، أو كان طفلًا، أو أبكمًا، ولا يستطيع أن يكتب الحقوق التي في ذمته؛ فيقوم مقامه وليّه، ويكتب ما له وما عليه من الديون دون زيادة أو نقصان.

وعليه أن يُشهد علىٰ الوثيقة شاهدين عدلين من الرجال؛ فإذا لم يوجد رجلان فلا مانع أن يكون الشهود رجلًا وامرأتين ممن ترضون من النساء؛ حتىٰ إذا نسيت إحداهن ذكرتها الأخرىٰ لغلبة النسيان عند النساء، وبالأخص في الأمور التجارية.

ولا يجوز للشهود الامتناع عن الشهادة إذا دعوا إليها حتىٰ لا تضيع حقوق المشهود لهم.

ثم أخبر جلّ وعلا أنه يجب عليكم كتابة الديون إلىٰ وقتها المعلوم؛ سواء كانت قليلة أو كثيرة، وعليكم أن لا تضجروا من ذلك، وهذا أصح وأحفظ عند الله، وأثبت للشهادة، وأقرب إلىٰ نفي الشك في مقدار الدين والأجل.

ثم استثنىٰ جلّ وعلا من ذلك ما يحصل من البيع والشراء باستلام السلعة ودفع ثمنها في الحال؛ فهذه لا إثم عليكم في عدم كتابتها وتوثيقها.

وعليكم أن تشهدوا علىٰ العقود في مبايعاتكم، وخاصة في الأمور الكبيرة؛ كبيع الأراضي والبيوت والمتاجر والشركات ونحو ذلك.

ولا يجوز الإضرار بالكاتب والشهود؛ كأن يكلف بالسفر من بلد إلىٰ بلد لأداء الشهادة دون أن يُعطىٰ تكاليف السفر؛ بل يجب إكرامه وتعويضه؛ فإن حصل منكم إضرار فقد عصيتم الله وخرجتم عن طاعته.

واتقوا الله أيها الناس وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ فإنه يعلمكم سبحانه جميع ما يُصْلِحُ أمور دنياكم وآخرتكم، وهو بكل شيء عليم، لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وهذه الآية تسمىٰ آية الدين، وهي أطول آية في كتاب الله، أما أقصر آية فهي في سورة المدثر، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر:٢١].

وقد اشتملت هذه الآية علىٰ أحكام وأوامر كثيرة متعلقة بالبيوع؛ فالواجب علىٰ المسلم أن يتعلمها ويعمل بها؛ حتىٰ يكون من الفائزين والناجين في معاملاتهم المالية.

۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ
فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ
ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ
ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ
يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ
مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ
وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ
ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا
وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا
وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

[٢٨٣] ثم بين سبحانه لمن كان في سفر واحتاج للاقتراض إلىٰ أجل محدد، وقد تعذرت الكتابة بسبب السفر أو أي مانع آخر؛ فعلىٰ صاحب الحق أن يأخذ رهنًا يقوم مقام الكتابة ليَحْفَظُ به حقَّه؛ فإذا وَثِقَ صاحب الحق في ذمة صاحبه وأمانته فلا حرج في ترك الكتابة والإشهاد إن كان ذلك غير ممكن، ويكتفىٰ بالرهن؛ فإن لم يوجد فعلىٰ صاحب الحق أن يتقي الله ويؤدي ما عليه من الحقوق التي اؤتمن عليها؛ فإذا أنكر من عليه الدين وكان هناك من حضر وشهد فعليه أن يشهد بما علم ولا يكتم شهادته، ومن كتم شهادته فإنه فاجرٌ وآثم قلبه، واعلموا أن الله مطلع علىٰ سرائركم، وما تخفيه قلوبكم، وسيجازيكم علىٰ جميع أعمالكم.

وقد ذكر سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية الرِّهان، وهو التوثيق الثاني للعقد بعد الكتابة، والثالث: هو الكفالة، وَذِكْرُ السفر هنا ليس شرطًا، وإنما ذُكِرَ لأنهم في الماضي لا تتهيأ لهم أدوات الكتابة في السفر، ثم اعتمد الرهن في السفر وغيره.

[٢٨٤] يخبر جلّ وعلا أنه يملك جميع ما في السماوات والأرض، وأن كل ما تظهرونه أو تخفونه في أنفسكم أيها الناس فإن الله يعلمه وسيحاسبكم عليه، وإنه سبحانه يعفو عمن شاء من عباده التائبين، ويعذب من شاء من عباده المعاندين المُصِرِّين علىٰ الذنوب والمعاصي، وهو علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٢٨٥] ثم أخبر جلّ وعلا أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين آمنوا بما أُنزل إليهم من ربهم من القرآن والوحي، وأن كلًّا منهم آمن بالله وحده لا شريك له، وآمنوا بالملائكة الكرام، وآمنوا بالكتب التي أُنزلت علىٰ الرُّسل، وآمنوا بالرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله، وأنهم لا يفرقون بين الرسل فيؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعض كما فعلت اليهود والنصارىٰ؛ بل يؤمنون بهم جميعًا، وقالوا – أي: الرسل والمؤمنون –: سمعنا يارب قولك وأطعنا أمرك، فنسألك أن تغفر لنا – بفضلك – ذنوبنا وتقصيرنا، فأنت ربنا ليس لنا رب سواك، وأنه إليك وحدك مصيرنا ومرجعنا.

[٢٨٦] ثم يخبر جلّ وعلا أنه رحمة بالعباد لا يكلف نفسًا إلا ما تطيق؛ وأن لكل نفس جزاء ما عملت من خير، وجزاء ما عملت من شر، ويقول المؤمنين عند دعائهم ربهم: ربنا لا تعاقبنا إن نسينا أو أخطأنا؛ فأنت تعلم أننا بشر ضعاف مقصرون، ويا ربنا لا تكلفنا ما لا نطيق من الأغلال التي كانت علىٰ من قبلنا، ويا ربنا لا تحمِّلنا ما لا نستطيعه من التكاليف والمصائب التي نعجز عنها، وامْحُ ذنوبنا، وكفر سيئاتنا، وارحم ضعفنا وتقصيرنا؛ فأنت مولانا ومالك أمرنا، ولا رب لنا سواك، وانصرنا يا ربنا علىٰ الكفار الذين جحدوا دينك، وكذبوا نبيك محمدًا ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا﴾، **الآصار**: هي الأغلال، وقد استجاب جل وعلا فله الحمد والشكر؛ حيث قال: قد فعلت.

وقد نزلت هذه الآية تخفيفًا عن المؤمنين لما اشتكوا إلىٰ الرسول ﷺ وقالوا: إننا امتثلنا التكاليف التي نطيق، أما الخواطر النفسية فهذه من الأمور التي لا يسلم منها أحد، يشيرون بذلك إلىٰ الآية التي قبل هذه، وهي قوله تعالىٰ: ﴿**لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ**...﴾؛ فأكرم الله المؤمنين وعفىٰ عن الخواطر النفسية[١].

وقد ثبت عن النبي ﷺ أن من قرأ الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه[٢]، أي: كفتاه من جميع الشرور، لما احتوتا عليه من المعاني الجليلة.

(١) أخرجه مسلم (١٢٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه مسلم أيضًا (١٢٦)، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٠٨)، ومسلم (٨٠٧)، عن أبي مسعود البدري رضي الله عنهما.